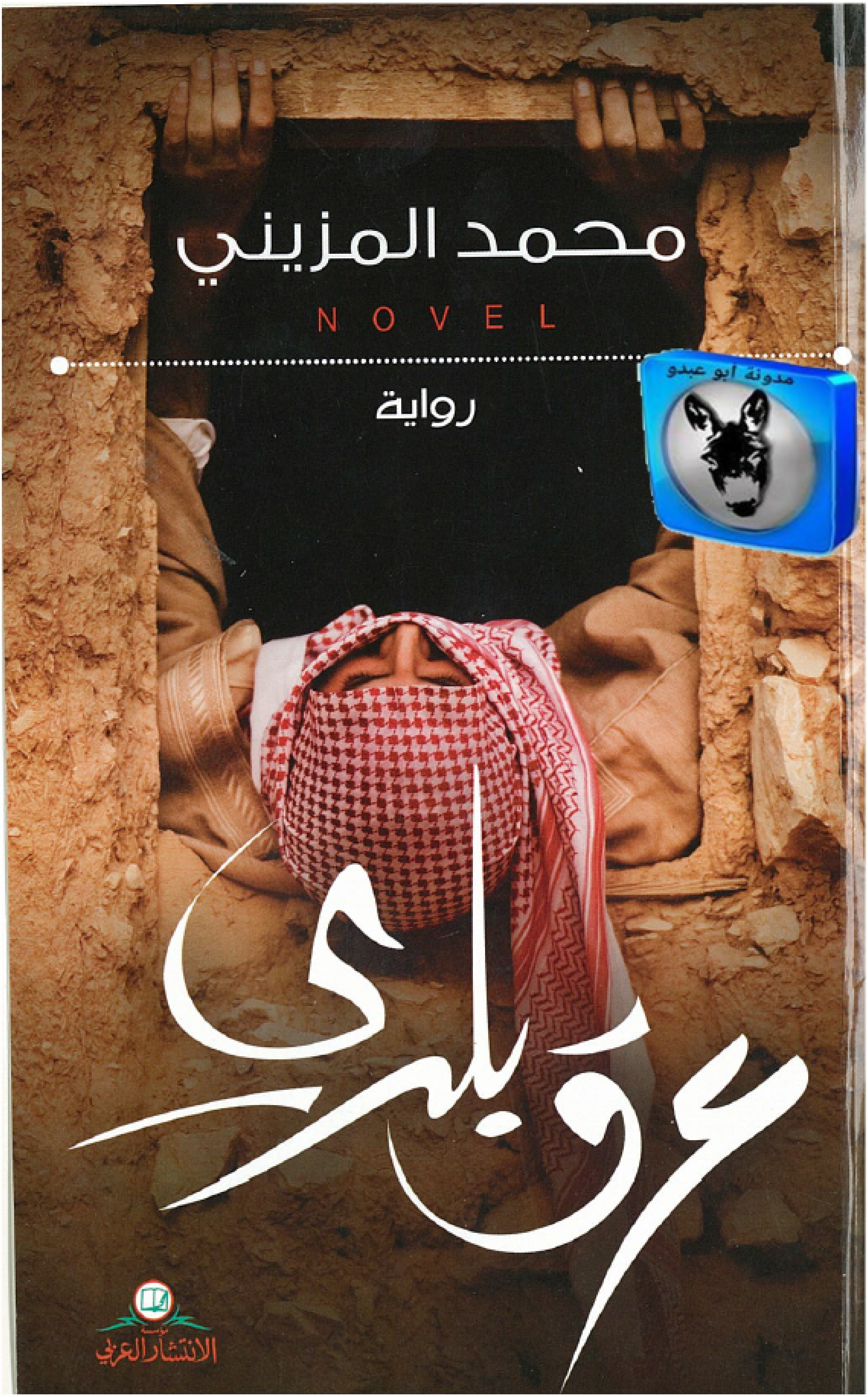

محمد المزيني

NOVEL

رواية

عرق بلدي

مؤسسة الانتشار العربي

مدونة ابو عبدو

عرق بلدي

محمد المزيني

عرق بلدي

رواية

مؤسسة الانتشار العربي

Arab Diffustion Company

عرق بلدي

محمد المزيني

رواية

مؤسسة الانتشار العربي

ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

الصورة بعدسة الفنان: عبد السلام التويجري

تصميم الغلاف الفنان: هشام محيي

ISBN 9953-479-70-4

الطبعة الثانية 2010

في واحة اليد اليمنى
تتبرعم الكلمات
وفي اليسرى. . .
تنفجر نواتها
وفي القلب الكامش
كوجه يحتضر
تفوح دماء الضجر والخوف
وبين سواد العين وبياضها
تتجندل حبات الدموع
كرصاص بندقية عتيقة
من بقايا ذكريات

(يعقوب)

كنت أرفض استعادة الزمن كي لا يسحبني إلى سنوات الوجع، والآن وعلى الرغم من مضي عدة سنوات على الحادثة الأولى أجدها تولد في دماغي من جديد، وفي شخوص أبطالها العظام الذين شرعوا اليوم ينخرون الماضي، فأصبحت ذاكرتي تعيد حياكة هذه المشاهد. تمددت أيامي حبلى بالحكايات القديمة يؤلب عليها إحساسي المرهف لكل الأشياء المتحركة من حولي بشيء من البؤس والتعاسة والتشفي، سأحكي لكم طرفاً منها، حيث إنني أحس بوقعها متراكضة كسنابك خيول جامحة في أحباري وبين أوراقي، وكأنها مخاض لولادة لا تنتهي، فهل تكتمون السر عني؟ كما أنني أرجوكم ألا تحسبوها شهادة محضة يستدل بها داخل أروقة المحاكم. خذوها كما أرويها لكم وإن لم تبصروا فيها شيئاً من ذواتكم فاسحقوها بعد حرقها وانثروها في وجه الشمس، كما يقدم الهندوس أجساد موتاهم.

أنا وهو

معاناة أولى

لم يكن النهار يلملم أرديته البيضاء إلا وقد خلف فينا حطاماً من عروق تتلوى على صفائح النشوة الملتهبة. تنضح بها وجوهنا المنقوعة بتعاريج المدينة. كانت قد انقرضت سنوات خضر لم نشهدها أطلق عليها (سنوات الطفرة) لتزف بين يديها سنوات أخر يابسات، قال العارفون إنها بمثابة طواحين. كل طاحونة منها مثل معركة لها قوادها وأبطالها فيها المنتصر والخاسر ومنهم المتفرجون. وحينما خرست فجأة شاخ حَيُّنا القديم (الخزان). بينما شمخت أحياء جديدة تصلها شبكة حديثة من الطرق المتمددة في كل اتجاه، فباتت أزقتنا محدودبة على ذاكرة نكسها الصمت وعثا بدورها الخواء. نفض عنها قاطنوها القدماء أقدامهم ورحلوا إلى تلك الأحياء، مخلفين وراءهم تراثاً من المعاناة، صبغتها رتوش حكايات صغيرة لا تزال معلقة كتمائم على الحيطان، ومتدلية من الأسقف. أخيراً سكنها الغرباء الساربون إلينا عبر آلاف الأميال. قطعوا أوصالهم بحثاً عن لقمة العيش، ثم سقطوا

عنوة في بيوتات حيّنا القديم علهم يجدون فيها شيئاً من العزاء، بما تفوح به من رائحة قديمة، تنتشي لها أنوفهم ليظلوا معلقين بخيوط الأمل والحلم بعودة غانمة إلى بلادهم، وبأقل الخسائر الروحية والنفسية.

كنا قد اكتشفنا أننا كبرنا خارج نطاق الزمن، وغدونا بقايا آثام وضحايا من قصرت بهم هممهم لالتقاط غلتهم من تحت عجلات الطفرة الطاحنة، وتحت نير شمس الرياض الفاحشة تلاشت فرحتنا، وأجهضت نطفة الحلم قبل تخلقها. كنا لا نبتغي أكثر من هبة تملكنا أنفسنا أو جدول صغير نجري خلاله بحرية. كما لم نكن سوى أجساد مزدهرة بالشهوة تتلوى بين الحلم ووهم السراب الخادع. تعودنا أن نبيت لدن أطراف الأزقة. نرسل أعيننا كفراشات تحوم فوق الأبواب والنوافذ المتوهجة من الداخل. نختلس منها ما يتسرب إلينا من تفاصيل حياة نابضة بأصوات نساء شرهات لأجساد أزواجهن. نتخيل من فرجة الصمت الليلي فحيحهن وهن يراوغن بوادر اللذة. لم تتركنا الأعين المترصدة بشكوكها نمثل أدوار المراهقة،، بل كانت تحشر خلف خطواتنا عنوة لتصيدنا كيرقات سامة، وتذرنا نفلي أيامنا بحثاً عن متعة حاضرة بعيداً عن تلافيف الحي. كما لم تمنحنا بصائر المراقبين

حريتنا في التوغل بين الغرباء الجدد. وبالرغم من ذلك كنا نعلن التحدي ونعبئ أرواحنا بالإصرار، محاولين بذر أعيننا الناتئة في وجوهنا فوق كل شيء، متفحصين مفردات طقوس هؤلاء الغرائبية، فينمو فضولنا لاحقاً بشساعة طاغية. كان همنا الأول تصيد المواقف اللحظية البادية منهم محتمين بزوايا متهدمة. كنا نمرق بين أياديهم كفواصل صغيرة تائهة بين أسطر كبيرة دون أن يلحظوا ما يثير شكوكهم، ويستنبت المقت تجاهنا. بتنا نشاطرهم الأزقة الضيقة دون وجل تحت مظلة الزقاق ملك للجميع. بينما كنا نفرغ شحنات غرائزية عجلى نرسلها بذبذبات أثيرية نبصم بها فوق أجساد النساء المخفورة بعباءات ثقيلة لم يتعودن عليها؛ لبسنها بطريقة مضحكة. صرنا نلوح بينهن بأجسادنا الفارعة كأعلام بيضاء خافقة بالانتصار. وعندما يلوكنا الفراغ نقف على ناصية الطريق العام، نمزق أرصدتنا الضخمة من الوقت ونمارس لعبة الدهشة، مريقين لهفتنا البائسة بين كل مظاهر الرخاء والثروة التي تختزلها سيارات المرسيدس والليكسز، وأخرى نجهلها تنزف منحدرة عبر طريق الملك فهد كمهرجان أو ليلة عرس متخمة بالحفاوة والأهازيج حتى استعرت فينا الحيرة ونهشتنا مظاهر هذه الحياة المترفة،

لم يكن الوقت يعني لنا أكثر من ليل ونهار وما بينهما عدم، نحاول تشييؤه كيفما اتفق.. وقبيل مغيب الشمس ساعة تفرز مدينة الرياض من بين أحشاء أحيائها عصارتها السحرية نطوف زهقنا بين الأسواق.. كنت ويعقوب قد أسلمنا جسدينا لصندوق حديدي محشو بمقاعد متهالكة يسمى مجازاً حافلة (خط البلدة). لا يحوي في بطنه سوى وجوه عمال مسخها العنت اليومي وأسمال بالية تبرز أيادي نحتها الحديد والخشب والنار.

لتنافح بنا غمرات الطرقات الملبدة بالسيارات، غازية بشكيمة وتحد مفزع مسارات طريق الملك فهد بلا توقف. يحشوها في جوف الفرجات السانحة بين السيارات، بينما يعقوب لا يكف ضاحكاً وهو يقول كلما اخترقت عينه لمعة سيارة فارعة:

– الله يعطينا بس لو مليون ريال يكفي.

يخرش هذا الاستبسال في الدعاء مهجتي، فأطلب منه مضاعفة المبلغ فهو لا يتسول أحداً من العالمين، بل يدعو كريماً رزاقاً، فآمره بلغة شجب حادة بأن يعيد صياغة طلبه المرفوع إلى الله أو اقتلاعه من لسانه فيزيدني حنقاً وتبكيتاً وهو يقول:

– لا مليون تكفي:

تستمرئ حافلة النقل (خط البلدة) لعبة تقاطعات طرق الرياض النازفة بهدير محركات لاهثة بلا توقف للوصول إلى مجهول غائم لا يتحقق أبداً، إلى أن توقف بنا فجأة ليغرقنا الضجيج الفائح من أرصفة سوق البطحاء. فهو المنبه الأول بالوصول إلى محطتنا المبتغاة. كان قد اجتبانا تلاطم الأجساد كأطفال صغار على امتداد هذا السوق العتيد الذي يشبه إلى حد كبير بازارات بومبي، أو كوالالمبور، أو بنغلاديش، تتسلل منه روائح تاريخ مختلط بعرق كل الشعوب. دهست أدقامنا بلا مبالاة قاذورات الباعة، ولشحذ همتنا لمخر عباب الفوضى العارمة التي ستعيث حتماً بأعصابنا تنكيلاً. حركنا ذائقتنا الرطبة لالتهام شطائر شاورما حراقة. . يعلق يعقوب وهو يقضم منها قضمة أولى قائلاً:

- ما ألذ طعم الشاورما!!! خصوصاً بلحم القطط.

نقطع طريقنا الملون بالوجوه المكدسة أمامنا فلا ترتخي ملامحنا حتى نفادنا منها، ومن لجلجات الباعة الواقفين خلف بسطاتهم المكونة من أدوات كهربائية ذات استخدامات غريبة، وأدوات زينة كلها بلا فائدة جلبت من كل بقاع العالم. تخلصنا أخيراً من انعكاسات الإضاءات البصلية الكاشحة فوق هاماتنا بعنف. مشينا نذرع عتبات

المحلات، كم يوغر صدورنا تدافع الباعة بأيديهم المثخنة بالبضائع يلهجون بنداءات مرتلة وأحياناً مسجلة على شرائط (كاسيت) ونحن نستبطن عجزنا عن الشراء. نقف أمامها نجربها، نسأل عن ثمنها، نفاوضه إلى أن يمل ويشيح بوجهه عنا، ثم ندخل باحثين عن مشاكسة بائع آخر. ندلف إلى عمق السوق المتاخم لسوق النساء، مخلفين ضجيج البطحاء وراءنا. فنهرول راكلين بأقدامنا الصلدة كل ما نمر به من حاويات وعلب مشروبات غازية. لنصل سوق النساء سريعاً، فنغوص بين التواءات ممراته الضيقة، حيث ترجن لذتنا فوق عش الشهوة البادية من تلوي أجسادهن الحربائية. وهنا تبدأ لعبة المواربة بأطرافنا الغافية الآخذة بالانتشار. سريعاً نلملم بذورها كي لا تنمو فترتطم بأجسادهن، مستشعرين حالة انتصاب جزئي مختلسين طريقنا إلى الممرات الأضيق، حيث التصاقهن متكومات حول بسطات الباعة بلا نظام فلا يتحسسن لارتطام الأجساد العابرة بأعجازهن المندلقة بكرم.. عندئذٍ لا مناص من التلاحم المبرر الذي يبعث صعقته الكهربائة النافضة، هذه اللحظة فرصة مجانية بلا تبعات فنكدس نظراتنا الغاشية حول وجوههن البضة بانتقائية مسددة، وتحلق أنوفنا مثل عصافير الجنة متنقلة بين روائحهن

العطرية المتخمرة برائحة عرقهن الطازج. إحداهن كانت تقف منتصبة بشموخ أبدي ساعة امتهنت أعيننا تمشيط المسافات فنحتت من جسدها الملتحف بعباءة لامعة تمثالاً جرانيتياً صقيلاً، أزاحت خمارها الشفيف عما بقي من أطراف وجهها ليستكمل استدراته كأنني أرى ابتسامة لاهثة تستشري كانبعاث لمعة البرق على صفحة وجهها المرمري، تسرب إلى خيوط من دماغي التي لا تزال محشرجة بانتفاضات راعفة بنزوة صغيرة، تخيلت أنني أشعل شفتي بعرق فمها المشغول ببقايا لزوجة حامضة، وأن ألملم قطع كلمات رخوة اختراقاً لألواح النفس العازلة بيني وبينها، استجمعت هي بقع ضحكات صابونية خفقت بين شفتيها كأجنحة حمام مذعورة مخترقة حواجز الخوف. الشهوة، وقفت أمامنا تقول:

- الله يستر عليك ممكن خمسين ريالاً؟ ليس معي نقود لليموزين الذي ينتظرني هناك.

أومأت بيدها نحو الليموزين الرابض قريباً منا. فتشت على عجل بتكلف مكشوف في مخابئي عن بقايا ريالات ذابلة لا أعلم عددها أخرجتها ووضعتها في راحتها الرطبة. بينما سحب يعقوب قصاصة ورق صغيرة وغطى بها النقود ووجهه مغمور بابتسامة مشاغبة. قال

مدحرجاً شق عينه اليسرى نحوي بصوت مختنق يطفو فوق لسانه كبقايا حلوى تحيط بها ثكنة نمل أسود:

- اتصلي.

ثم توارت بين جموع النساء، بينما الليموزين لا يزال واقفاً مكانه لا يبرحه. في أيام تالية ظل صاحبي أيضاً في انتظار دائم لا يخرج من البيت إلا نادراً، لعل ذلك الوجه يمنحه صوتها فيغزل منه متعته الملتهبة بين عروقه، فلما مضى قرابة أسبوع ملّ انتظارها فاقداً الأمل في صيد ثمين ألقى بظلاله على قارعة الطريق، ليبدو وجبة دسمة لنكاتنا وتهكمنا عليه.. ادعى للوهلة الأولى أنها اتصلت به وقضى معها وقتاً جميلاً وخاثراً ورطباً، وفي كل مرة نسأله عنها بتشفٍ يرتجز حكاية مختلفة عن السابقة. كان يعوزه الخيال الكافي لنسج حكاياته حتى ملّ أكذوبته الكسيحة. أخيراً كشف لنا حقيقته معترفاً بعجزه عن اختلاق حكاية تقنعنا ومسلماً بالهزيمة مسقطاً بذلك مصداقيته أمامنا، ولم نبرح التندر به والسخرية منه منذ ذلك اليوم. كانت لنا في النهار ألف حكاية نكسوها بخيالاتنا وأحلامنا الصغيرة ووقتما يخبو فحيح الأرض المتضورة من وقع خطوات لقمة العيش.. تبلج لنا أعين مراوغة تلمع كأعين قطط برية، فتزهو أمامنا المدينة

بتجاعيد تكسوها واجهات رخامية نضرة، تحتفل بتكريس الصمت على بشر مثلنا ينسلون بمكرهم الليلي، يخاتلون بريق متعة منسية ومتشظية من بين أعطاف الحذر والخوف.. نمضي وصديقي يعقوب نستنشق رائحة فتياتنا بما تنسجه رؤوسنا من روع ذلك الصمت والسكون. نمر خفافاً محدودبين بأنفاس مكظومة تحت نوافذ أخرى مطبوعة بالوان حمراء، نتخيلها مكتنزة داخلها ببياض طاغٍ وضحكات توقظ تباشير حياة ليلة باذخة بالمتعة؛ لتشرع أجسادنا الحامية تتورم بفواحش نكبتها مثل اللعنة، ونسحق أعصابنا كي لا تلقي بنا في مهاوي التهلكة والبطش جرّاء أي تماس مع أعراض الناس. كانت مطاردتنا للذاتنا مسبوقة بتحريات ومخاتلة تواري نوايانا الملتئمة على شقوق تفوح منها رائحة النزوة، وكان كل واحد منا ينحت بأزميل شهوته خيالاته لصيده المكتنز باللذة يفرغ به طاقته.

سويلم العدان

معاناة أولى

كان أكثر ما يثير حنقنا ويشد من أزر معاناتنا ورهقنا ومقتنا (سويلم العدان)، ذو الوجه المستطيل الذي يزيد من حدة استطالته ذقن أشيب يتدلى من وجهه على شكل بوق صغير. كان مثار مقتنا له وجهه المقطب دائماً، ومكافحتنا بعصاه الرقيقة الموجعة كلما رآنا نتقافز خلف كرة أو نلوذ محتمين في كوة عارية من جدار مهدوم وكأننا شياطينه التي تخطف لحظات سكونه، وعندما كبرنا زاد كرهنا له. في غضون أقل من خمس سنوات كان سويلم العدان قد استولى على أكثر دور الحي، وحتى أراضيه المهملة وخراباته، مفضلاً تأجيرها على الوافدين. حيث يتحكم هذا الأمي في أكثر بيوت الحي المؤجرة، فلا يغرب عنه خبر أي نازل جديد أو راحل وحتى القاطنين الذين يحدوهم أمل بالانتقال عن هذا الحي كان يفاجئهم باقتحام فج ومداهمة مستنكرة مقدماً عروضه السخية، ينفحهم العقار المملوك بأقل سعر للمستأجر في السنة الأولى ثم يضاعفه في السنة التالية كما يدفع أعلى سعر

يستحقه أي عقار معروض للبيع ويسابق الآخرين إليه ولتأكيد جديته في الشراء ينقد البائع نصف الثمن قبل توقيع العقد والآخر عند استلام صك البيت، فلا تهدأ نفسه حتى يحصد صك الملكية مجيراً باسمه، هذا عدا امتلاكه لعدد من محطات الوقود على الطريق العام.

يتعمد في أحايين كثيرة تقسيم البيوت الكبيرة إلى أربع دور صغيرة تدر عليه مبالغ طائلة. كان لا يسأل البتة عن جنسيات النزلاء أو هوياتهم ما داموا غير سعوديين، مما يوفر له سهولة ومرونة في التحكم والتغلب على مشكلات جمة يواجهها كثير من العقاريين. فهؤلاء يدفعون له الأجرة في أوقاتها وأحياناً شهرية. كان يستقبل بينهم كملك متوج بعقود مهيبة، فيحلوا له التقلب بينهم ليحظى منهم بانحناءة احترام وتبجيل، يدفعهم إلى ذلك خوفهم المستطير من سخطه، ثم يحدث ما لا يحمد عقباه أقلها الاستبعاد والتشريد من هذا الحي الضاج بمختلف اللهجات. ولهم في أحد المستأجرين الوافدين عبرة. عاثر الحظ الذي ما أن تأخر في دفع الأجرة بضعة أيام لظروف قاهرة حتى وجد نفسه وأولاده خارج المنزل، ليحل مكانه آخر نفح سويلم أجرة أكثر فهم يعلمون جيداً أن المنتظرين في قائمته الخاصة الملعونة كثر وجاهزون

يتحينون الفرصة وبشهية تواقة للنزول في هذا الحي. فهم يعلمون جيداً أنهم لن يعثروا على أفضل منه، لاختلاطه بعرق كل الكادحين من الوافدين المتآلفة قلوبهم، وتجاذبت مآسيهم بقعة الهم الذي لوح وجوههم وتعاورته مصالحهم. تشاركوا بسرية نطف اللعنات على كل السعوديين الذين يمثلهم العدان. لم يكن سويلم العدان يمانع في إشراك أو استضافة قريب أو نسيب في العقار، شريطة دفع مبلغ إضافي يحسب على قيمة الأجرة الكلية بما يتناسب مع وضع النزيل. ويقوم العدان بطريقته الخاصة بإجراء التعديلات اللازمة للسكن كأن يشيد غرفة إضافية مستقلة فوق السطوح أو يفصل غرفة داخلية، المهم أن يتم كل شيء بمعرفته ولا يسمح بأي تعديل إلا من خلاله لكي لا تزيغ عن بصره شاردة أو واردة إلا أحصاها. ووقتما تحين ساعة تحصيل الأجرة، ولكي لا يراه أحد يتسلل بنفسه ليلاً كجرذ كبير، مخاتلاً راحة المستأجر، يحصد أجرة ستة أشهر منتظرة ثم يعود أدراجه بهدوء وخفة معهودة يمشي مستخفياً عن الأنظار بواسطة السيارات المركونة بعناية لصق الجدر. وفي ذات ليلة راقدة على صمت الأزقة كنا نجوب الأحياء، نستجلب من بين الدور وخلف الجدران ما يفتح شهيتنا لمغامرة

محرزة تفرزها الأصوات الناعمة. رأينا سويلم العدان يمشي متخفياً خلف السيارات حتى توقف أمام باب أحد المستأجرين. كان ينقره ثلاثاً ويتكئ على عمود الكهرباء بانتظار من سيفتح له. بيد أنه لا مجيب فبات لا يبرح مكانه بانتظار ممل آملاً ببزوغ المستأجر من فوهة الباب أو من حلق الشارع. جلس متقرفصاً يبث ناظره على خفقات الأشياء حوله علَّ الهواء العليل أن يبعث صوت قرع نعال أو هسيس أنفاس قادمة. تصلبنا نرمقه من بعيد، نشاطره الصمت والملل بلا هدف نتوخاه. تناهت أحاسيسنا بكبر الليل مستشعرين زهقه، فالتفت إلى الباب يحرك أوصاله بعنف دون جدوى مرتجاة. كان الوقت يتسرب من تحت أقدام الليل الثقيلة.. انصرمت أكثر من ساعتين ليدلف الهزيع الأخير منه، كانت دوريات النجدة قد طفقت تتلوى عبر الأزقة مثل انحدار الماء تلملم أعينها اللقطات الأولى للمشهد الليلي الأخرس، فالتوى سويلم بجسده المتورم عابراً الزقاق مختبئاً بالسيارات، وأذنه لا تزال متعلقة بالباب الموصد، كنا نراه من خلال نوافذ السيارات التي نحتمي خلفها يعبر أمامنا مغمغماً بعبارات مثقلة بالبصاق واللعنات بعين مشحونة بالوعود المتربصة شراً. خلفنا وراءه حيث ابتلعه سديم العتمة. تعقبناه

متخففين من أحذيتنا كي لا تفضحنا مشدودين بحبال من الكره والمقت. تخاطرنا سريعاً بأعيننا فاستهوتنا مغامرة الليل. فهاجمناه من الخلف بعدما لثَّمنا وجوهنا بذيول شمغنا. جردناه من كل ما بحوزته من أوراق ونقود كانت داخل كيس بلاستيكي وتركناه سريعاً يتلوى من ألم الضربة الألى المفاجئة في رحم الظلمة الكالحة. هرولنا بما أسعفتنا به أقدامنا الحافية تلعق من الأرض زيوت السيارات ونخامات لم تجف بعد إلى حيث المكان الآمن داخل أرض مسورة نتقاسم ما غنمناه من غلة جزلة، وفي أقل من نصف ساعة كنا قد احتللنا مقاعد الصدارة في أحد مطاعم شارع العصارات نمنح لصوتنا فرصة لنداء (الجرسون) بثقة وتعالٍ وكأننا نمارس لعبة تبديل الكراسي قلت لصاحبي:

- ماذا تقول أيها اللص... هل هناك ما هو أفضل من النقود؟

أجابني وشدقاه منتفخان بالأكل:

- الأكل أيها الحرامي الصغير.

- النقود تفتح الشهية للأكل.

- والفقر يسد الشهية عن الأكل، وهو ما تسميه أمي الرضا بالمقسوم.

عدنا تيك الليلة متخمين ومغمورين برضا وشهية مفتوحة للنوم بأعين تتوق للقيا أحلام، نقدر أنها ستكون سعيدة ابتداء، وقبيل أن يحرك صوت المؤذن سكون الليل استلقيت في الفراش مطفئاً بقية من اهتزاز ينبعث من إضاءة متثائبة، لتفتح لي الظلمة نافذة أطل منها على مسرح الحياة. كانت ستارة الظلمة الحالكة معبأة بصور موتى يبزغ من بينها وجه سويلم، مرمياً على الأرض كحذاء مقلوب ومشرئباً بالبكاء. كأني كنت أبصره يبكي حظه العاثر الذي ساقه تلك الساعة الملعونة. حاولت أن أزيغ ببصري عنه. فلم يكن البكاء يناسب وجهه المفتول بالجشع، رشقته بنفثة دحرته من عيني. سحبت ملاءتي فوق وجهي، أخذت نفساً عميقاً. استنشقت من خيوطها السميكة رائحة العصور العالقة. بت أغرف منها بقايا أهداب النوم أرمم بها غشاء النعاس الملصق بين جفوني كشرنقة، فانضويت على ابتسامة مغموسة بارتياح وسكينة ونمت.

تناهى إلى أذني صرير أبواب الصبح تدلقها شمس لاسعة اخترقت نافذة غرفتي المواربة. نظرت من فتق عيني إلى ساعة سوداء قديمة بعقارب خضراء لامعة تضيء عتمة المكان كنت أضعها دائماً في مواجهتي ها هي أمامي تشير إلى الثانية ظهراً، ألفيت باب غرفتي موارباً،

ولأني تعودت سماع صوت أبي دائماً يوقظني إما للدراسة أو الصلاة فقد أصبح جزءاً من طقوس النوم. وربما ساعدني صوته على الاستغراق في النوم بما يبعثه من حالة طمأنينة وأمان هذا الارتباط الغريب لزمني منذ الطفولة حتى بعدما انتقلت والدتي إلى رحاب الله ليقوم هو بتربيتي وتنشئتي بما يسمح به وقته صيرني ابن لذاتي، رفعت جذعي العلوي من الفراش متحسساً داخل جيوبي ما بقي من غلة السطو، استللتها ورفعتها نصب عيني، كانت من فئة المئة ريال، عددتها سريعاً ثم أعدتها برفق إلى جيبي. تسربت إلى قلبي مشاعر مستفزة سلمتني لمؤشر الخوف المتنامي سريعاً.. وكان مصدره التفكير المفاجئ بمآل سويلم، زاحمتني أفكار أخرى بغيضة تصور لي جسد سويلم هامداً إلى الأبد فنهضت من فراشي راكضاً إلى حيث يفترض أن أجده في المكان الذي لا يغرب عنه وكأنه مخول بإحصاء حتى أنفاس الناس. خرجت مسرعاً أباغت لحظات الذعر المستشري داخلي، فانكشف لي وجه الشارع باعتيادية متناهية. رأيت سويلم قادماً يجرجر قدميه المنهوكة ملفوف الرأس بشاشة بيضاء حاملاً ذراعه اليمنى بخرقة تطوق رقبته. ثم لمحت يعقوب يمشي خلفه الهوينى حتى استقر مكانه داخل مكتبه الحقير، ليطلق

ضحكة مجلجلة كادت أن تفضحنا لولا تكميمي فمه بذراعي وسحبه إلى داخل الزقاق قال:

- تدري... كنت في المستشفى للتحري. لم أنم البارحة جيداً. كنت خائفاً مذعوراً أرتجف في فراشي من أن يكون قد هلك على أيدينا، فلم أرتح حتى اطمأننت عليه وهو في غرفة الإسعاف كان قد انتهى للتو من تجبير يده وسمح له بالمغادرة.

قلت وأنا أبخر قلقي بأنفاس مبلولة بالخوف:

- الحمد لله.

كنت قد استنشقت هواءً عليلاً برغم الكدر الذي يجتاحني من بقايا أحاسيس بالذنب، سرحت برهة، أفقت منها على هياج يعقوب وهو يسألني:

- ما هو مشروعنا هذه الليلة.. معنا نقود تكفي للشهر.

- بالله عليك اصمت لا يسمع بنا أحد.

- لا عليك قيدت ضد مجهول ونحن لسنا مجهولين فهمت... كم معك؟

- ثلاثة آلاف ريال.

- وأنا مثلها ربما تزيد قليلاً.

- احترس لا نريد إنفاقها سريعاً فلن نحصل على كبش سمين يحمل نقوداً مثل سويلم.

- من قال إننا سنكرر عمليتنا؟ هذه.. وتوبة.

- بداية متعتنا تبدأ من استئجار سيارة نحوم بها في كل الرياض ألم تسمع بمقولة تعرّف على بلدك؟

كانت الرياض ترتعش بأنوارها الليلية على نسمات هواء عليل. أخذنا سيارتنا المستأجرة ومضينا نقتص من طرقات الرياض الدائرة الواسعة. متنقلين بين الأحياء إلى تقاطعات الطرق، فإذا مللنا التطواف ترجلنا متسكعين داخل الأسواق الكبيرة، مندسين بين أجساد النساء الفارعات بعباءاتهن حيث تتكسر على سوادها المشع الأملس كل ألوان الإضاءات، راسمة حدودها وتعاريجها الأفعوانية، متضوعة برائحة عطور غريبة. بدأت تعشش في خلايا أدمغتنا منبهة كل أعضائنا الساكنة إلى وجود شيء ما يستحق الاهتمام. خرجنا منها مكتنزين بغواية الليل ممتطين صهوة السيارة الصغيرة عبر طريق الملك فهد، مقتحمين أزقة الشميسي القديم نعالج التواءاتها الضيقة مبتغين الوصول إلى الطرف المتاخم لحينا بما يدرأ عنا أي شبهة تطالنا. ركنا السيارة هناك متخففين من عويلها، وترجلنا مخترقين الأزقة، حومنا حول الدور المتحاضنة بحثاً عن لذة تالية. دحرجنا أقدامنا مثل كرات

ماء فلم يبد سوى هسيس القراطيس المتناثرة على الأرض تعابثها الرياح ومواء القطط تحت السيارات المتعانقة كخرز سبحة في خيط يمتد بلا نهاية، نبهنا الصمت إلى ثمة جلبة غير اعتيادية تعانق سمعنا. أنصتنا نرتشف بوادرها. تناهى إلينا خرفشة وحركات غير منتظمة تصدر من داخل باب موارب. كانت مثار فضولنا، فمشينا بمحاذاة الجدار حتى التقطنا رموزها سريعاً وحللنا شفرتها. كانت مدافعة وأنين وأنفاس متهدجة خائفة يلفها خيط نزوة، جازف يعقوب بالولوج، وإذ بشاب في مثل عمرنا، يحتضن فتاة خائرة القوى يهصرها بجسده على الجدار المقابل له، فندت من الفتاة صرخة كممها الشاب بيده ثم قال وهو مرتعد وخائف:

- من أنت؟ وماذا تريد؟!

- أنت من أنت وماذا تفعل؟ سأله يعقوب.

انهارت الفتاة متوسلة:

أرجوكما استرا علينا.

قلت:

- بشرط أن ننال نصيبنا.

- لكما ما تشاؤون ولكن في الليلة المقبلة، الوقت متأخر جداً الآن.

دفعنا الشاب وخرج مهرولاً تواريه الظلمة.

باتت الفتاة تبكي مستجدية قبول عرضها لنا. تعدنا بليلة تالية. نقتص نزوتنا من جسدها. وأخيراً أقنعتنا؛ لنعود إلى فرشنا محملين بصيد مؤجل إلى الليلة التالية، بتنا الليالي نحتسي صبرنا من كأس الانتظار الذي سيخرج لنا الفتاة من حلق الباب المقابل في الساعة المناسبة والآمنة لنا ولها، وقفنا ثم جلسنا وتمطينا حتى كرعنا الوهم من خيالات يصنعها الضجر، وكي لا نفقد حلمنا الموعود بتنا أكثر من أسبوع نلهي أنفسنا ونمنيها حتى اقتربنا من الباب نسترق السمع فما أن صرنا منه قيد ذراع تناهى صوت أجش يتفزر بوابل من اللعنات. اقترب الصوت منا إلى أن فتح الباب فجأة، وخرج منه رجل في منتصف العمر واضعاً شماغه على كتفه وقد جحظت عيناه وانتفخت أوداجه. ركب سيارته الهايلوكس، آخذاً نصف استدارة، كاشحاً النور في وجوهنا ليكتشف أن ثمة غرباء متصلبين على جدار المنزل. كانت قشعريرة الخوف قد هزت أوصالنا، وقبل أن نحركها هاربين كان قد سبقنا بسيارته محيطاً بنا حيث دفع بجسده ويديه الغليظتين قابضاً على يعقوب من طوق ثوبه وسحبه نحوه، أدركت أنه لا مناص من المنازلة محاولاً تخليصه من بين يديه اللتين أصبحتا كهراوات غليظة تنهال عليه عشوائياً، ويعقوب

يستقبل الضرب المنهال عليه مع وابل اللعنات المستخلصة من جحيم المنزل، شددت يعقوب نحوي، فتفلت من براثن أيادي ذلك الذي لم نحدد هويته. هل هو من أصحاب المنزل... معتوه... حانق؟ لم تكن مبادرته السريعة لنا بالهجوم تهبنا الوقت اللازم لفهم ما يحدث نهض يعقوب سريعاً مستقوياً بإرادة المقاومة لنلتف عليه من جهتين. ضربته فوق رأسه ولكمه يعقوب على وجهه ولينا فراراً، مخافة خروج الناس من منازلهم في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، فنقع فريسة مغامرة خاسرة بكل المقاييس، هربنا نرقأ نزوة صغيرة لم تكتمل باحثين عن سبيل آخر للمتعة وفي غضون مواورباتنا لأيام فرخت تعاساتها بين جوانحنا طفت أخبار فوق ألسنة الناس مفادها زواج سويلم العدان بفتاة يافعة الشباب، حسدناه عليها وتضاعف كرهنا له، مع حقد إضافي. فكيف لم تثنه تجاعيد وجهه التي حفرتها السنين عل شكل أخاديد، وجسده المحشو بكرش تخاله من بعيد دبر حمار عن التقدم برباطة جأش واستسهال طلب فتاة بعمر بناته لو كان له بنات.. ربما ألقى ثراؤه بومضة كاشحة على بصر والدها فأعمته عن اكتشاف علامات شيخوخته القميئة، كل ما جاء في سيرته سابقاً لم يكن يضيرنا في شيء ولا يحرك ضمائرنا بالكراهية تجاهه، فلم تكن تشاطره

أرواحنا أدنى بوادر ألفة أو تهفهف لمحياه وجوهنا. . ما وخز قلوبنا بدبابيس كاوية اقترانه بهذه الفتاة الحسناء بحثاً عن رحم ينتشي لنطفته فتنجب له الولد المنتظر بفراغة عمر وصبر وتجلد، (صفا) لم يتفتق عمرها عن ثمرة العشرين سمعتهم كغيري يتحدثون عنها بإسهاب، هي من أصول موريتانية قدم والداها إلى حج بيت الله الحرام وكانت أمها حبلى فأنجبتها عند قريب لهما هناك، فلم يبرحا الحرم. . وفي حجته الأخيرة تعرف على والدها البائع البسيط بسوق الشبيكة المتاخم لبوابة الحرم الشريف، تحت كفالة ذلك القريب كان يذهب إليه كلما سعت به قدماه إلى الحرم، وذات مرة رأى هذه الفتاة صدفة بخمارها الفضفاض الذي لم يوار حسنها، فانفطر لها قلبه ورقت روحه. . تردد كثيراً قبل أن يفكر في طلبها بيد أن المبرر كان جاهزاً فالمال يكفي لتحريك الجبال الرواسي، لعل الله أن يرزقه منها بذرية طالما تاق وتلهفت إليها نفسه، فقد ظل يزايله الأمل بالرغم من تدثره بعباءة السبعين. . تردد أكثر من مرة فحرك لسانه أخيراً على طريقة التجار (عرض وطلب)، مستغلاً حاجة أبيها إلى المال. عرض عليه مئة ألف ريال مقابل تزويجها، فوافق المسكين فرحاً بهذا العرض دون استشارة الفتاة فلم تبرح ثلاث ليال حتى تم عقد القران وإتمام الزواج وعاد بها

مغتبطاً مسروراً محققاً الظفر مخفوراً بفرح وحلم بزوجته الصغيرة البكر، حيث تذوب في عروقها حلاوة الصبا وخفقة الشباب. في اليوم التالي خفت إليهما الأقدام من نساء ورجال تبارك لهما، فلم يضجره ويقلقه من ذلك سوى حسد الحاسدين من عبارات تتسلل إلى مسامعه ووشوشات الناس واصفة جمال الفتاة الحسناء وظرفها، كما نغص عليه فرحته إخوته وأبناؤهم الذين هجموا عليه ذات ليلة يلهجون بأصوات ضاجة رافعين لواء الندب والاحتجاج على زواجه من هذه الغريبة، قال أحدهم:

- بلا حسب أو نسب!

وقال آخر:

- حتماً ستسود بها صفحات شجرة العائلة لن تكون نقية كما كانت.

ثم تناوبوه بعبارت دنسة تفج الأرض اليابسة وتبعث نائحات الليل وتلجم ثغر الحكيم.. ظل ممسكاً بآخر أهداب فضيلة الصمت إلى أن تلوا عليه آيات التهديد والوعيد إن لم يخل سبيلها ويطلقها بلا رجعة وقال الآخر:

- ستقاطعك كل العائلة فرداً فرداً حتى زوجتك الأولى سنطلقها منك.

وعندما فرطوا كل حبالهم الصوتية بما هطلت به

حلوقهم من عبارات جاهزة وأخرى صنعها الموقف التفت إلى إخوته قائلاً:

- أنتم تقسون علي وتكثرون بما فيه الكفاية. شوفوا عيالكم حولكم ما فكرتم يوماً بحالي تعالوا تفضلوا شاركوني همي؟! كنت أتمنى من الله أن يمنحني ولداً واحداً لا أكثر وها الحين أنا كبرت وما زلت أحلم بهذه المنحة.. ليلة البارحة.. حلمت بأني أغرس بذرتين كانت في يدي اليمنى ويدي اليسرى تصب الماء عليها لعلها رؤيا صادقة تعني ذريتي اللي ستحمل اسمي.

أجابهِ أحد أبناء الأخ الأكبر قائلاً:

- وإن تم لك ذلك... فسيحمل اسمك وليس نسبك!!!.

تلقى أحد الأبناء بلمحة خاطفة تعليمات والده لإثارة ضغينة زوجة عمه الأولى (رضوى) واستعدائها عليه حيث كانت قابعة خلف الباب تصيخ سمعها لكل ما فارت به نفوسهم، وعصرته حلوقهم، فالتوى بجسده إلى داخل المنزل فلما أحست برائحة أنفاسه تقترب من الباب انبرت إليهم خارجة من الباب بصرامة صبغت بها حديثها وقالت:

- هذا زوجي وابن عمي تحملته بلا ذرية ولا نعلم من منا السبب؟ لذلك سأعيش في كنفه إلى أن يتوفاني الله

برضى تام، فلم يبق في هذا العمر أكثر مما مضى فاتقوا الله في أنفسكم وتعوَّذوا من الشيطان الرجيم الذي أوغر صدوركم وأطمعكم فيما ليس لكم ثم ولت إلى حيث كانت متوارية خلف الباب، بينما الإخوة الثلاثة وأبناؤهم يحتوون وجوههم المتوهجة بعروق تنضح عرقاً وكرهاً وهزيمة. خرجوا من عنده يجرون أقدامهم بقرار واحد هو القطيعة الأبدية.

تركت هذه الحادثة بصمتها الخاصة لدى الناس وصاروا يتعاطفون مع سويلم، أما النساء فالتففن حول حكايات لا تنتهي ينسجنها من وحي الحادثة: أما نحن فبتنا متشاغلين بجمال هذه الساحرة الصغيرة صفا وصفوها بأنها بلون القطن وعذوبة العسل ونعومة المخمل وكنا نتناقل أحاديثنا المسائية حولها، ونحن مكبلون بالنزوة. نتلذذ برسم وجهها وجسدها على لوحة المدى العميق بأحبار منتشية. نرمقه بمآق شانئة وهو يقلب مفتاحه وسط القفل ذات اليمين وذات الشمال، تأكيداً على إحكام غلق الباب واحترازاً، وتأكيداً على إحكام قفله جيداً مخافة اجتراء أبناء أخيه على زوجته الصغيرة اللذيذة الشهية فلا تزول عين (العدان) عن الشارع حتى يتوارى إلى حيث مكتبه العقاري الحقير ذي الفتحة الواحدة بين (المحال الكبيرة).

كم هاجسنا اشتهاؤنا في تصيد ملمح من هذه الساحرة، مبقين فتيل أعيننا مشتعلاً حول سدة باب سويلم، في عملية تحرٍ بانتظار ساعات رخية علّها تخرج معه فنصطاد ذلك الملمح، كنا نفترش الإسفلت الساخن بترقب ممل، إلى أن سنحت الفرصة المرتجاة في ساعة من نهار غافل، وقتما خرج سويلم ينتشر فوق محياه قلق ومن خلفه (صفا) يفتح لها باب سيارته (الداتسون) فتركب ململمة عباءتها الساقطة على الأرض إلى جانبه، فيصفق الباب مستحثاً همته للانطلاق سريعاً دون أن يعبأ كعادته بما يدور حوله، كنا نراقب المشهد على ناصية الطريق العالم بوجوه تخايلها مشاهد مركبة للشابة الذاهبة برفقة زوجها، وقبل أن تستوي السيارة على جادة الطريق العام كانت صفا تسوي خمارها المتهدل فبدا خلاله بياض مضيء وبارق صرع كل خيالاتنا، قلت:

- لقد حصل هذا الشايب على جمال النساء كلهن.

أجابني يعقوب:

- الفلوس تهدي النفوس، ما تسمع المثل الذي يقول: «الدراهم مراهم»!!

كان قرارنا أن نتخشب في أماكننا إلى ساعة عودته، فلربما نحظى بمشاهدة كاملة ترتسم معالم جسدها أكثر

بما يخمد اشتياقنا لرؤية هذه الساحرة مضرب المثل بين كل فتيات الحي ونسائه.

كان الليل قد تمطى في روع النهار، وسكب لونه الرمادي حتى غامت حدود الأشياء وتفاصيلها. وفتئذٍ عاد سويلم بوجه يعلن عن انفراجة حادة. اقتربنا منه بما يسمح لنا بالإحاطة الكاملة بالمشهد فلم يعرنا انتباهاً ونحن نقترب من حفيف أقدامهما، بخطوات رتيبة هرول نازلاً من سيارته إلى الباب الآخر للسيارة حيث كانت (صفا) يفتح لها ويمسك بيدها مطالباً بمشي وئيد قائلاً:

- شوي... شوي على مهلك. هاه: من اليوم ترتاحين حتى يفرجها الله.

فلم تزل أقدامنا متسمرة مكانها حتى ابتلعهما جوف المنزل.

في الغد اكتملت حلقات الحكاية (صفا) حامل.. ستون سنة مضنية كادت تقضي عليه لولا أن تداركته عناية الله فيستودع سر التكوين الأول لبذرة نسبه في رحم هذه المخلوقة الحسناء، علق أحدنا قائلاً:

- لماذا لا تحمل؟ هذا الزين يحرك ذرات الأرض التي يمر بها ويخلخل الكون.

أدركوا تالياً أنها استطاعت أن تنفض عن كاهله عبء فحولته الذاوية، سالخة عن جلده مساحاته الصماء، لذلك هو داخل شرنقة الانتظار والقلق لن يخلص منها حتى تضع من في أحشائها. صبيحة اليوم التالي طاف بكل عجائز الحي وشيوخه داساً في أيديهم غلالات صغيرة تنطوي على مبالغ نقدية بوصفها زكاة غير معتادة منه، آملاً في أن يتمم الله له هبته ويحفظ نطفته الأولى في رحم (صفا) كي تنجب له الولد الذي سيسلسل ذريته من ظهره، ويستنسل منهم تاريخاً مجيداً. لم يعد هو ذلك الرجل الموجز، بل أصبح كلاً تتحرك داخله مجموعة تفاصيل صغيرة مشرقاً بوجهه منذ الصباح الباكر بثوب أبيض وغترة يتموج بياضها بسطوع أشعة الشمس عليها. تتنفس ملابسه برائحة عطور شرقية للمرة الأولى.. شرع يتحسس بشرات وجوه الأطفال ورائحة فروات رؤوسهم يمرر راحته فوق هاماتهم ثم يدس يده الأخرى مضمراً بضعة ريالات في جوف جيوبهم الأمامية، أما العاملون لديه في محطة البنزين فلم يتغير حالهم معه كانوا كما في السابق يضمرون تململهم لمجرد بروز وجهه الكئيب وكأنه صيغ من معدن سماوي مختلف.. سقط فجأة وصار الجميع يخلعون بين يديه كلمات الإطراء ويبادرونه تعليقاتهم التي

تحقق لديه غروره، لم تمض أشهر تسعة حتى انفجرت الصرخة البكر الأولى، كان ذكراً أسماه (صالح) هذا المولود الذي بصم سحنته في جبين سويلم أفشى الفرح، وجعل عينيه المستطيرتين تعصران دموع الفرح ووجهه يرتجل ابتسامةً عريضةً مشبعة بالبهجة. كان لانفراج كربته تداعياتها الخاصة على كل العاملين معه والمستأجرين للمرة الأولى وتغيَّر مسار علاقاته بنا وعلاقتنا به حيث ترك لنا حريتنا في التجوال عبر تقاطعات الحي والجلوس في المكان الذي نحدده دون مضايقة أو طرد كما كان يفعل سابقاً. كان هذا التصرف بمثابة إعلان حالة الهدنة بيننا وبينه لنمضي مشتغلين في مشاطرة الناس حياتهم بفضول وتطفل غير بريء، نائين عنه وعن مخاتلة زوجته ذات الحسن والدلال التي أضحت منذ اليوم تكنى بأم صالح.

فريد وأنا وهو

لعبة أولى

يعقوب لا يحب الصغيرات، ولا متوسطات العمر، ولا مانع من كبيرات السن إلى حد ما. . سألته:

- في عمر من مثلاً؟

قال:

في عمر يسرى مثلاً.

ثم راح بما يشبه الهذيان يكشف ستر أسراره مستطعماً لذاذة مغامراته قائلاً:

- عندما شعرت برجولتي المبكرة وبدأ ينتصب ذكري طفقت أجرب نفسي، أتحرش بالنساء الزائرات لأمي ساعة العصر، وقد لا أتورع عن الاحتكاك بهن إلى حد الالتصاق المباشر بأعجازهن الكبيرة، قليل منهن كن يتحسسن انتصابي الكامل ويمارسن الالتصاق به وكنت أرتعد، وغالباً أنثر سمومي اللحظية وأرحل مبخراً عرقي تحت هواء المكيف الصحراوي الرطب متقرفصاً في زاوية من غرفتي.

هذه الحكايات الماجنة تهبنا ليلة تكتنز شبقها، فنهيم

ملتحفين بهالة الظلمة متلصصين تحت نوافذ بيوت سكان الحي الجدد المرعوبين من غربتهم في مدينة عرفوا عنها قبل أن يأتوا إليها أنها مدينة الصلاة والعبادة والناس الصالحين، لذلك وحتى يتعلموا كيف تبنى العلاقات مع الآخرين آثروا الابتعاد عن الناس أو الاحتكاك بهم، أما نحن فنستغل فترة الاختبار هذه لاستراق السمع واكتشاف أسرار حياتهم المضمرة خلف وجوههم التي عادة ما تختصر الابتسامات والعبارات إلى تحية عابرة ومترددة، مدركين أنهم ليسوا بحاجة هنا إلى وجوه صقيلة لامعة فأهملوها تاركين لذقونهم العنان. . لم يكن فريد من نوعية هؤلاء، بل كان حالة استثنائية، فسرعان ما تعرف على الناس، مستأنساً بالجميع بلا تمييز وساعة يعبر أمامنا يتوقف ويبادلنا التحية فتمتد بنا الأحاديث الطويلة، إلى إسقاط الكلفة بيننا. أخبرنا عن بلاده وطقوسها وغواياتها وملذاتها وطراوة مناخها ثم حدثنا بما لا نفهمه جيداً عن السياسة والحريات والسجون ليشرع ضحكة هازلة وهو يقول:

- ليس ألذ وأمتع من اللعب مع الفتيات.

وفي أيام تالية صار يأتي إلينا عنوة يفترش الأرض معنا مسقطاً كل الحجب النفسية والعمرية الفاصلة، وساعة ترق أحاديثنا وتنعم أرواحنا تجنح ألسنتنا إلى

التلذذ بالكلام حول النساء، ألفيناه يحمل ذاكرة مفعمة بالنساء. وحينما توهج انبرى للحديث عن فتيات بلده وجمالهن الطاغي بلا أي غضاضة فاتقاً شهيتنا للأجساد الرطبة. حكى لنا، بلا ملل، عن مغامراته الأولى ويعلق عليها في كل مرة قائلاً:

- هذا طبعاً قبل اقتراني بحبيبتي هنية.

ثم قص طرفاً من ذكريات حبه لهنية وبداية تعرفه عليها وكيف غامر بمستقبله الواعد في سبيل الارتباط بها، نستمع إليه بآذان مشنفة وكأننا أمام مسلسل لسهرة ساخنة كانت عباراته تبصم فوق عروقنا معانيها فتتجشأ النزوة بما يميط عن حلوقنا أسئلة احتسيناها مع حكاياته فلا نتركه أو يتركنا إلا ساعة يحمى وطيس الشهوة ويشتعل فتيل الأحلام اللدنة، وفي بعض ساعات النهار نترصد لهما حيث تبعث عليها حكاياته الليلية، نراه يخرج من حلق الباب تطوق هنية ذراعه فتبدو أمامنا بيضاء متراقصة كرغوة (كابتشينو) كما يصفها أحدنا لا نذرهما حتى يعبرا الشارع لننقش من خطواتها وجسدها المثقل بأرداف كبيرة اشتهاءنا، لمحنا أكثر من مرة فلم يعبأ بنا أو يكترث لابتساماتنا الخبيثة، وفي ليلة أكلت منا المعاناة حظاً وافراً عاد إلينا يدعونا إلى تناول الشاي معه، ربما كانت مبادرته

نوعاً من الملاطفة يحتال بها علينا كي نكف عن التطلع إلى زوجته ونكبت نظراتنا المارقة لها ولكي نغضي حياء فيأمن بذلك جانبنا، فرحنا بدعوته فلم نتوان في قبولها ممزوجة بعلامات استغراب تقدح بها أعيننا المُدْهَشَة، دلفنا إليه باشتهاء فطري نتنفسه مع رائحة عرقنا. أعدت هنية لنا الشاي... ألحقته بقطائف حلوى التهمناها كذئاب جائعة ولكي يضفي علينا شيئاً من البهجة والمتعة أدار جهاز الفيديو. كان فيلماً أميركياً قال: إنه ممنوع شاهدناه بشغف واندهاش لم نفق منه إلا على شاشة سوداء مزركشة بخطوط بيضاء. سأله أحدنا بخبث قائلاً:

- هل لديك ما هو (أمتع) من هذا؟

أضحكتنا عبارة صاحبنا، فهب مضيفنا بكرم وأريحية بادية وهو يقول:

- أمرك مطاع سأريكم آخر ما وصلت إليه التقنية الحديثة.

نهض على عجل إلى حيث خزانة صغيرة وضعها لصق الجدار المحاذي للباب، فتحه وأخرج منه مجموعة أفلام، عاد يزفها بين يديه بحبور يشفه وجهه الوديع، التقط من بينها واحداً بعناية فائقة ووضعه في جوف الفيديو بعد أن استل منه الفيلم السابق، كنا قد تهيأنا

لمشاهدة ساخنة رفعنا جذوعنا الفوقية ولملمنا أطرافنا المرتخية انتظاراً لما ستهبه لنا هذه الشاشة الأرجوانية. كنا نغشى بأعيننا كل تفاصيل المشهد وأحداثيات الشاشة ابتداءً من نهنهة شريط الفيديو الأولى إلى أن شرعت الأجساد العارية تتلوى كأفاع أثقلتها سمومها وفحيح أصوات متضورة اشتهاء وشبقاً. . انتفشت الأجساد البرية المتوحشة فطفت فوق أعيننا سحابة تنقل رائحة عرق الأجساد، تورمت الصور بانفجارات متعاقبة تشققت منها مساماتنا فرشقت مياهها اللزجة، فبدأ يدب في عروقنا خدر لذيذ. خرجنا من عنده مبلولين بانتعاشة أسكنت الصمت فوق شفاهنا وافترقنا بصمت.

في مساء الغد لففنا عباءة توجساتنا ودحرنا خوفنا ومضينا بتوق قريباً من دار فريد، نرهف سمعنا لخطوات القادمين، متربصين بفريد مرتقبين قدومه بملل تخثرت منه أقدامنا المنهوكة من تقطيع أوصال المسافات، امتد بنا الليل إلى غاية الخشية، خشية أن يتأخر حيث بدأ الليل يلملم أجساد التعب زارعاً بذور السكون لتنبت الوحشة. ثمة خطوات تدب من حولنا وسرعان ما تتلاشى، فتنبري شكوكنا توخزنا بوخزات مؤلمة، افترشنا صبرنا بعدما عادت أعيننا على أعقابها تصفعها أيادي الليل واليأس.

استلقينا على ظهورنا نحاور ارتعاشات النجوم الراقصة الغاصة بالمجهول، طوقتنا ساعات وجلة إلى أن باغتنا وقع أقدام ارتشفتها آذاننا من أنفاس الإسفلت الساخنة، كانت فرجة صغيرة مثل كوة نبتت من عقر الظلام تحمل وجهه، كانت عقارب الساعة تتلوى على منعطف الواحدة، وقتها اندلعت عروقنا بحرائق لن يخرس ألسنتها سوى ما سنظفر به من مشاهدة مشابهة لليلة البارحة ولزوجتها الحامضة، هرعنا إليه نحمل شهواتنا فوق أظهرنا منكبين بين يديه وأفواهنا كهوف سرية ابنثقت منها للمرة الأولى لبانتها، حار جوابه فلم يتحرك لسانه حتى خلناه قد ابتلعه، وعندما توقف أمام باب منزله بحث عن سلسلة المفاتيح وهو يقول:

- الليلة لا أستطيع... نؤجله للغد وإن كنتم مضطرين فأؤجركم إياه: الفيلم الغربي بخمسين ريالاً والعربي بمئة ريال.

بهتنا عرضه المفاجئ، فاجتالتنا همة البحث عن بقايا نقود ملتصقة بجيوبنا... بالكاد يكتمل مبلغ الغربي. أحدنا عرض عليه القبول بخمسين مقدماً والباقي في الغد ويعطينا العربي، فلم تقنعه هذه الحيلة، مضمداً راحة يده بشراذم النقود دون أن يعدها، فولج البيت ثم عاد يحمل

الفيلم. راغت إليه أيدينا تضمه بحنان. كانت لحظة ننتظر أن تفجر مكنوناتها، فلم تقنعنا هذه المشاهد المكررة فانطلق يعقوب قائلاً:

- أنا من سيأتي لكم بالفيلم العربي.

- كيف؟

- من فريد.

غاب برهة من الزمن محسوبة، ثم عاد يتأبط لذتنا المنتظرة (عربي؟) فيلم عربي ممهور بأجساد عربيات مشرئبات الصدور ممتلئات الأرداف. كانت ليلة عربية استثنائية أغرقتنا المشاهد الساخنة، تستنسل أصواتاً عربية تتلظى بجمر الشهوة، وأعيننا لا تنطفئ تحملق في أثير شاشة مفخخة، حرثت أجسادنا حتى رشقت ثمالتها. كنا وفريد في مضمار واحد كفرسي رهان هو يعصر جيوبنا وقوانا ونحن نقتص منه بممارسة لعبة التخيل من الأجساد العربية، نركب منها تقاسيم زوجته هنية التي طالما أعطتنا أكياساً محشوة بالأفلام بعدما نضع في يدها الممتدة إلى الخارج مثل الأقحوان الثمن.. أحياناً نخاتل جسدها من خلل الباب، فنقتنص منه ملمحاً من وجهها وصدرها المشع بياضاً تشاغله مسحة من حمرة.. وفي ليلة افتضضنا أسرار متعتنا والتقطنا فيها أوصالنا مثل خيوط

نارية سكبت نكهتها بين شفاهنا وتسامقت لزوجتها فوق جذوعنا وأطرافنا تخاطرنا بأعين تلمع بالفقد والتيه.

- يا ترى من تشبه هنية من هؤلاء؟

- تشبه هذه الممتلئة.

- لا النحيفة.

- وجهها مستدير أبيض مشغول بحمرة قانية.

- لا وجهها بيضاوي أنا رأيتها تشبه الممثلة بوسي.

- لا . . . لا . . . هي أطول من هذه وأكتافها عريضة.

- تراهنون؟

- نراهن.

اعتنقنا مغامرة سنؤديها في الصباح دلفنا إليها بقلوب مثقلة بالتشفي، فلم ننم إلا قليلاً من الوقت. . بعضنا بات أسير هذه المجازفة إلى أن بسطت الشمس نفوذها فوق هامة الكون طاردة كل الظلال الراكدة خلف الجدران وتحت السقف، كنا قد مثلنا في حرز من أعين الناس نراقب الطرقات. وقفت ملتصقاً بالجدار ونقرت باب فريد بيدي اليمنى بضع نقرات وخشته بطرف مفتاح كشفرة مميزة تتعرف عليها حينما تأتي لأخذ ما عندنا من أفلام أثناء غيبة زوجها، كان يعقوب يستكن بجوار الباب

والاثنان الآخران يراقبان مفترقات الطرق. كان الشارع قانطاً محتقناً بالصمت، فكانت بمثابة دقائق تفصل بين التهور واللذة الحرة.. فتحت هنية الباب على وجل وحذر شديدين مخرجة يدها تتلمس النقود كالعادة، لم يمهل يعقوب اللحظة الحاسمة، بل داهمها ملتقطاً يدها دفعها إلى الوراء كابتاً فمها بيده.. لحقت به وأغلقت الباب بهدوء. فزعت بعينين جاحظتين، يرفرف الخوف فوق وجنتيها.. ارتطم جسدها بالجدار فانكشف المشهد الأنثوي بكل تجلياته وعربدته. كانت ترتدي شلحة سوداء ناعمة وشفيفة تحدد معالم جسدها بدقة متناهية.. تزاحمت أيدينا وأعضاؤنا المنبهرة تلتهم طراوة الجسد ورائحته الفتاكة. كأننا ننزلق فوق رغوة صابون، حيث انبثق بياضها كشمس ساطعة من وجهها ويديها وصدرها المشتعل أنوثة. كان صوتها المكظوم يشحذ همتنا للالتصاق بها أكثر ويغرف من عروقنا زيوتاً حارقة تضرم أجسادنا بنار لن يخرس وميضها سوى تفجير صهاريج الزيت. التأم يعقوب حول رقبتها وهو يطوقها بإحكام من الخلف ممتصاً أولى عصاراتها مرغت وجهي فوق جسدها فاستجلب أنينها صوتاً انحدر فجأة كصخرة أيقظت الهواء الراقد حولنا مستطيراً كل الأجنحة الكامنة بين أشجار

السدر والكينا. استفزتنا واستوفزنا لها، فاستطارت قلوبنا ذعراً. تجافيت عن جسدها ساحباً مفاصلي المزدحمة بالنزوة.. تقهقرت إلى الخلف باتجاه الباب فأدرت مزلاجه ودلقت جسدي من عتبته. لم يك ثمة أحد سوى أطفال كانوا للتو يخفقون بأثوابهم كحمام زاجل. أدرت ظهري إلى الطريق مشيحاً بوجهي عن انشطار الأعين المتلصصة على كل شيء. باريت إساس المنزل ومضيت مهرولاً غير عابئ بظل يسابقني... خضنا ضجيج الطريق العام بنزوة مكبوتة ورهان خاسر.. شاغلنا أنفسنا بسيارة يعقوب الجديدة التي انتزع ثمنها من إخوته من أبيه لتسكيته عن الإلحاح بنصيبه من تركة والده، وهم يرفضون بحجة لا يراها مبررة وهي عمره المراهق الذي سيدفعه سوء التصرف والتدبير إلى نفضها.. في أقل من أيام كانت هذه السيارة بمثابة النجاة والفرار من وجه فريد الذي سيكون حتماً معبأ بالضغينة. ابتلعتنا طرقات مدينة الرياض نجوبها مغمورين بتحدٍ وعنادٍ.. مضغتنا الأسواق الكبيرة الناشئة حديثاً مع كل أصباغ حياة المدينة الحديثة ومساحيقها الملونة لحسنتها لتتوارى ألوان المنازل الرملية وتحل ألوان رصاصية باهتة مشغولة بالزجاج.. لا يتوانى يعقوب في إطلاق تعليقاته الساخرة عليها وهو يصفها بأنها

صالونات حلاقة. فمن أسواق العزيزية إلى (اليورمارشيه) مقتربين من هفهفات عطور النساء المختلط بعرقهن غير مكترثين بالوقت أو المكان لنسقط أخيراً بعد ساعات تجوال طويلة في ركن قصي من أحد المقاهي المتشطرة عن الرياض نبخر عرقنا وندرب أنفسنا على ممارسات الرجولة الكاملة مجربين كل نكهات المعسل، بالرغم من عدم تقبلنا النفسي له، وأحياناً تميع منها وتتحشرج بطوننا لتفرغ وجبة عشائنا. وفي ليلة بينما كنا عائدين من تسكعنا الدؤوب بعدما تناوشتنا أيادي الكل والإرهاق وقبل أن أهمّ راجلاً من السيارة إذ بسيارة نجدة تحوطنا. نزل منها شرطيان يطوقاننا وبلا أدنى مقاومة منا وجدنا نفسينا داخل قمرتها الخلفية مخفورين. ظللنا طول الطريق نستبطن هوية القضية وبخرس متعمد، فلم نكن سوى أعين تسيح في ظلام خدر ومفاجأة منتظرة وكسر أسئلة ناشفة في حلوقنا، مفوضين أمرنا إلى حيث القدر المجهول. صبّ يعقوب عبارة مرتجفة قائلاً:

- لعلها من تبعات فريد.

- ربما هذه مغامرة فادحة لم نجرؤ على مثلها أبداً وإلا سيكون لها تبعات.

- تعني هذا ما كنا ننتظره.

- لنرتاح من قلق الانتظار.

- انتبه... إذا سُئلنا عن الموضوع فالجواب المناسب الإنكار.

- والأدلة؟

- ليس هناك أدلة أو شهود لنقل... تبلي.

- تبلي... تبلي... خربانة... خربانة.

ولجت بنا سيارة النجدة داخل مبنى الشرطة ثم استلمتنا أيادي الشرطة الحانقة بعنف واقتادونا عبر دهاليز متقاطعة على جوانبها أبواب مغلقة حتى انتصبنا أمام باب مكتب مقابل يفضي إلى أبواب مكاتب عديدة كانت خاوية إلا من أوراق مبعثرة أرضاً وفوق المكاتب دفعنا الشرطي بعنف مزق أزرار ثيابنا داخل مكتب قابع في ركن قصي ثم أوصدوا الباب خلفنا. كان المكتب واسعاً ومرتباً بما يبعث على التوجس والخشية. بتنا نذرع المسافات القصيرة متفحصين أدوات المكتب وأثاثه الأسود ومراتبه الجلدية الباردة. كان الوقت قد بدأ يتوغل في أعصابنا كعقارب سامة، وما يؤزم الموقف أكثر حدسنا بالكارثة التي اقتادتنا إلى هذا المكتب الملغم بالفرش الوثيرة والأثاث الأنيق، ليس إلى السجن مثل أي مجرم أو حتى متهم بجريمة، إذن هذه قضية أخرى غير تلك.. لا يهم ما دمنا في عهدة

الشرطة، فسيلعق وجوهنا كمٌّ لا بأس به من الصفعات الساخنة مع إقامة ليلة أو ليلتين نوقع بعدها على تعهد ونخرج، ليس ثمة ما ينتظرنا خارجاً سوى أبي وعجوز يعقوب نتصل بهما ونخبرهما أننا مسافران.. حتماً ستنطلي الحيلة عليهما ويكفان عن البحث. أحاديث تقاسمناها قبل أن تصيبنا نوبة ملل خبيثة عبثت بوجوهنا... كنا بدأنا نعلن سأمنا وقبل أن تسترسل عباراتنا المقهورة دخل علينا ضابط يعتمر قبعة عشبية باهتة وترقد فوق كتفيه ثلاث نجمات لامعات يبرز فوق وجهه شارب أسود كثيف تصب أطرافه إلى أسفل.. رشقنا بعينيه الصارمتين وكأنهما تتعاقدان على إخافتنا وقبل أن يرقأ صفير أنفاسه اللاهثة ويستكن فوق كرسيه ذي المسندة الطويلة التف حولنا بشراهة لبؤة جائعة تسخر من فريستها قبل تمزيقها والتهامها، ثم جلس متشاغلاً بملفات خضراء وبعدها استكمل حلقات المشهد نهض إلينا قال بلغة تقريرية:

- تعلمان جيداً ما اقترفته أيديكما؛ تذكران فريد وزوجته هنية.

- أها فهمنا، بذلك يكون قد وضع خطاً عريضاً حدد لبّ المشكلة قلت في نفسي:

- الحمد لله فرجت.

تسلقت عيني المسافة الفاصلة بيني وبين يعقوب إلى أن استقرت مذعورة في وجهه، فرأيت ابتسامة مريحة تحلق كنورس بين ضفتي شفتيه.

أتبع الضابط قائلاً:

- تدرون بإمكاني التحقيق معكما وتثبيت التهمة عليكما وسجنكما.

ثم سكت برهة مفتعلاً تقمص دور المحقق ثم قال:

- اسمعاني جيداً، سأصفح عنكما على أن تعداني ألا تقتربا من هذا المنزل وإن عدتما فلا تلوما إلا نفسيكما... مفهوم. قالها بصوتٍ عالٍ متكلف.

كان انزواؤنا بلغة الصمت هو إجابة كاملة على كل ما أملاه علينا وسمعناه، مخلياً سبيلنا وقبل أن نلتقط أقدامنا ونولي هاربين أمر الشرطي بأخذنا معه في طريقه إلى منازلنا... تنامت حيرتنا وتعاظم سؤالنا: أي ضابط أبوي حان؟ ثمة إجابات جاهزة لم تبلل يبس أسئلتنا. بتنا أياماً نحمل هذا السؤال ويكبر فينا التحدي؛ تؤلبنا عليه شهواتنا المارقة، وجسد هنية الذي لا تزال بصماته تعلم فوق أجسادنا، ورائحتها المشتعلة في أنوفنا. ظللنا لأيام وليالٍ نوارب المسافات، ونخاتل أي سيارة شرطة قد تعبر بمحاذاتنا ونحن نمرر أعيننا قريباً من بيت فريد، نتحسس

كل هبات الهواء الساكن، وخشخشة الأشياء الميتة حوله وكأنها تتخلق أمامنا من جديد. نتخيل فريداً يفتح الباب ويقف ملوحاً لنا كمنتصرين ومن خلفه تقبع هنية مشرقة بوجهها كطيف ساحر، نفرز منه عناصر جسدها الذي نحسه متسرباً عبر شقوق أوردتنا، فتنهض شهوتنا ويتمدد اشتياقنا.

وبعد مدة قابلنا فريد ذات نهار اجترأنا على صمته في محاولة ترميم ما أفسدته غوايتنا، دعوناه لمرافقتنا في جولة بسيارة يعقوب بصوت متوسل ومرتعد متذرعين برد عزومته في أي مطعم يشاء بيد أنه تمسك بحلقات الصمت... مشى واجماً لا تطرف له عين وقبل أن ينحدر من عتبة بيته إلى الداخل فرش أمامنا كلمته الأخيرة الحاسمة قائلاً:

- إن لم تكفا سأخبر الضابط (دحية)...

- الضابط (دحية) تقصد...؟

- نعم أقصد.

الآن بدأنا نكتشف خيوط اللعبة وسر اهتمام الضابط به وزوجته، وستبدي لنا الأيام ما تخفي من أسرار.. كم هي ممتعة هذه المراوغة الجميلة بين الأسود والقطط.

فريد وحية

لعبة أولى

لجت في قلوبنا حمى التحدي من جديد وشمرنا عن قلوبنا مقتلعين خورها من تهديدات (دحية). انصرم أكثر من أسبوع ونحن نحلق فوق كل الوجوه؛ مندسين بين كل العابرين بخفاء إلى أن أمطرتنا ساعة الحسم ببغيتنا، إذ أقبلت سيارة «شروكي» تنزف بهدير متشنج، بينما كانت الساعة تزحف متثاقلة ما بين خيطي الليل والنهار، فما أن رأيناها تلتصق بالجدار كجعل كبير، وتسقط منها سيقان نحيلة إلى أن يستوي الشخص واقفاً على الأرض حاملاً كيساً بلاستيكياً منبعجاً من القاع حتى تلاعبت بنا النشوة. اقتربنا نراوغ تقاسيم الضوء الخافتة متدثرين بالظلمة إلى حيث هذه الأقدام الوافدة في مثل هذه العتمة... اقتربت إليه بما يفصح عن أهم ملامح وجهه وكان الشنب الكثيف وعينان بازغتان كشرارات ألعاب نارية.. دحرنا شكوكنا باليقين، ها هو دحية يبتلعه بيت فريد الآن فقط فهمنا جيداً بنود هذه المصاهرة النفعية وطبيعة العلاقة الدنسة، مما فسر لنا كل حيرتنا، فقررنا أن نشق أستار الليل

كمحاربين ينويان الموت أو الانتصار، الانتصار سيكون سيد الموقف فلن يبقى أمام دحية سوى الاستسلام فلن يقذف بنفسه في أتون رهان خاسر وفقد كل شيء مقابل متعة لحظية. . تدافعنا نحو الباب وطرقناه بسكينة، فما أن فتح فريد الباب إلا وصرنا داخل المنزل. حاول صدنا. توسل إلينا. كاد أن يبكي ورائحة فمه تفوح بالعرق، مما حرك خلايا أدمغتنا وأنعش قلوبنا. أغلق الباب ولحق بنا متكسراً يثقله لسانه عن استجدائنا ونحن لا نأبه له، بل تزحلقت آذاننا إلى مصدر ضحكات هنية. تابعنا خطونا إلى غرفة داخلية تتبعثر منها إضاءة مموجة بدخان سجائر تحمل رائحة عرق محلي. اندفع يعقوب ملقياً بجسده داخل الغرفة وتبعته ومن خلفي فريد المتباكي على فضيحة ستلحق به قريباً. . هذا دحية إلى جواره هنية بروب عنابة ملتصقاً بجسدها وشعر كستنائي مصبوغ يسرح فوق كتفها، فما أن رآنا دحية حتى بهتته المفاجأة غير المحسوبة وأيقظت حواسه المعطوبة، وصار يرغي بكلمات وعبارات مثلومة. . نكص بجسده إلى حيث ثوب أبيض معلق بالجوار ساحباً من جيبه قطعة سلاح صغيرة أرعبتنا صوبها نحونا وهو يغمغم بشتائم ولعنات يحرض بها همته لقتلنا، انكفأنا إلى الوراء مطلقين أقدامنا للريح بحثاً عن النجاة

بعيداً عن فم المسدس الذي خلناه سيؤز برصاص يخترق أجسادنا لا محالة، لتزهق أرواحنا على يد هذا العربيد المتسلط. ومن ذلك الحين قررنا تمزيق كل نوايانا المبيتة للنيل من فريد وزوجته هنية، محاذرين سطو الفاسق المتهور دحية فطوينا مغامراتنا الليلية بين ثنايا حارات أخر.. نلملم داخلها قهرنا وهزيمتنا، تتجاذبنا أحياناً نزوتنا المشتعلة من بقايا رائحة هنية فنحوم حول بيت فريد بعدما نتأكد من خلو الزقاق من عيني دحية، المتفرستين دائماً في كل شيء.

أم صنات

لعبة أولى

في الهزيع الأخير من الليل وعند اختلاج خيوط النهار البيضاء برداء الليل الفاحم وبعد امتصاصنا لرحيقه الأول متسكعين بسيارة يعقوب، أوينا داخل السيارة إلى ثلمة مشرفة على بيت فريد، حتى طفت بين أعيننا صور مريبة نكشها الظلام الممتزج بنور باهت. أمام أعيننا كان اليل يهرم ساحباً وجهه مكفهراً أمام بهرجة الصبح القادم بعنفوان وجسارة. تدلت منه رؤوس مطأطئة متثاقلة.. نساء يتطوحن بأصوات منحورة تندلق منها روائح تكهرب أنوفنا. دفعت يعقوب بكتفي، فقد نفضت الرائحة عن جسده خدر النوم، ملهبة شرايين دماغه.. كاد أن يفضحنا. نهض جسده وهو يقول بصوت مسموع:

- انظر سكارى!!! والله إنهم سكارى.

شددته من طرف كمه بعنف فتزحلق إلى عمق مرتبة السيارة.. صار يزحف بعينيه متاخماً الأجساد المارة بنا لصق النافذة دون أن يشعر بنا أحد، وكن نساء ثملات ومن خلفهن رجل يحاول ضبط توازنه مغبة السقوط على

الأرض. انتفشت في رؤوسنا غواية صغيرة بما تلمع به هذه الأجساد وتسربه من فتنة التصقت بأجسادنا. نزل يعقوب سريعاً من السيارة مقترباً من منزل المرأة الجليلة (أم صنات) زاحفاً نحو الباب الموارب أكثر. سرب بصره عبر ما تبقى من إضاءة خافتة اندلقت بعفوية من فتحة الباب. ثمة أصوات كانت تهسهس خلفه كانت متطامنة بهذيان مكبوت.. لم أتركه ينعم بلذة هذا الاكتشاف، بل مشيت إليه الهوينى حانياً جسدي كي لا تشفه الإضاءة الخلفية فأُكتشف. اعتلت آذاننا قهقهات مكظومة وعبارات حاولنا رتق فجواتها لنفهم حقيقة ما يدور.. فجأة أغلق الباب أمامنا والتهم الصمت أملنا في التقاط أي دليل يؤكد شكوكنا، اجتاحتنا وهدة سكون عارمة بددها صوت المؤذن للفجر وكأنه صفارة إنذار لحرب وشيكة الوقوع تطلق الأقدام من عقالها. لملمنا أعيننا وكدسناها في عتمة السيارة وسؤالنا يستنبت روح المغامرة لاكتشاف سر بيت أم صنات. وفي ريعان جلجلة المآذن بأصوات خشنها النوم تدفقت عباءات سود يحفها رجال آخرون ثملون توزعوا على السيارات المركونة، كانت أصوات المحركات تعانق أصوات المؤذنين المبحوحة منطلقين بلا تريث ودون أن يثيروا زوبعة أو يحس بهم أحد من

السكان، اختبأنا بثكنة أنفاسنا العازلة حتى تنفست الأرض بروائحها الطبيعية وخفقت أقدام المصلين صوب المسجد عندها التأمت أعيننا في محاجرها وتمددت عروقنا المنكمشة، فركبنا جذوعنا السفلى وعدنا مغمورين بنشوة اكتشاف تحلق في أذهاننا فكرة واحدة فقط هي: ما السبيل إلى اختراق عزلة أم صنات الليلية بأجوائها المحفوفة بالمتعة؟

افترقنا تلك الليلة المحمومة بالترقب والانتظار الممل، نتراشق النظرات ونخلع عن رؤوسنا حموة ليلة ساخنة نغذيها بحيل ممزقة. تواريت على قعقعات خطوات المصلين متلفعاً بصمتي أحاول بعثرة توقي إلى بيت الدهشة والغواية، أقحمت مفتاح القفل على عجل فانفتح الباب فتسربت خفيفاً مباغتاً الظلمة الآخذة بالانهزام ضغطت بأقدامي على وجه الأرض الإسمنتية المتغضنة كاتماً أنين حذائي فوقه كي لا يشعرن بي أحد. زحفت رويداً رويداً إلى غرفتي القابعة في ركن قصي من بيتنا الوطيء. دسست جسدي في فراشي أحاور وجه الظلمة الدامسة المنبثقة من جوف الغطاء، أرسم منها تفصيل المشهد الليلي أحرك كل الأجساد الأنثوية الثملة، أخلق لها وجوهاً، ابتلعتني الحيرة ومزقني التطلع. تناوشتني خواطر مقيتة كأنها تنبت من تحت فراشي.

كادت تقذف بي في رحم بيت أم صنات لولا أن تناهى إلى سمعي ارتجافات صوت أبي مهللاً ومكبراً وهو يتأهب الذهاب إلى صلاة الفجر، فأطبقت أجفاني متظاهراً بنوم عميق، فاشتعلت الظلمة بأضواء تحسر هامة الكون وتشعلها مسرحاً عظيماً، فتراكضت خيول النوم مسرجة بكل تفاصيل مغامراتنا الليلية.

من هي (أم صنات)؟... هي عرابة الليل وهي ذاتها التي توزع فناجين الطهر صباحاً بين كل النساء المجاورات وقارئة فناجيله وكاشفة بخوت الساهرين.. تنضح ببهرجة تتدفق من وجهها وملابسها ذات الألوان الحادة المشغولة بتقليمات الزري الأصفر اللامع، تنعكس منها التماعة متكسرة تشتعل بها أساور الذهب، توسوس بين ذراعيها.. بيد أنها صارمة تقرع كل الوجوه الشاخصة أمامها، وتقتحم الأعين بلا تردد إذا ما دعت الحاجة لذلك. يطوي النهار سر الليل ساحقاً سحنة الرذيلة وينشرها في وجه الشمس بضوئها الفاحش.. تسألها نساء الصبح عن سر القادمين إليها ليلاً فتغرز إجابتها الحاضرة كمدية في حلق السؤال، تقول:

- هم أبنائي وزوجاتهم يسامرونني ليلاً، بعضهم يأتي من مكان بعيد وقبيل الفجر يرحلون.

تتبخر كل الأسئلة وتبقى سيدة الحي المصون تبادرهن بخدماتها الجليلة؛ تارة تتفنن لهن وبناتهن برسم وجوههن بالألوان والمساحيق التي تبهرهن بها وتجعلهن ذوات ذائقة وطعم لذيذ بقدرتها الفذة على طمر وجوههن المتعبة بوجوه تثير الفتنة وتحرك شهوة الرجال، تقول لهن بخبث:

- لو رآكن الشباب والشيبان لانتهضت همتهم واغتصبوكن. فتستشري بين شفاههن ضحكات متبخترة بالنزوة. جهزت أكثر عرائس الحي ابتداءً من فساتين الزفاف وانتهاء بترميم الأجساد وتزييف الوجوه ليلة العرس، متبوعة بقائمة من التعاليم الخاصة جداً وعادة ما تجلب السعادة في صدور الفتيات ويبتن رهينات جميل ومعروف لا يقدرن على ردّه لها، سوى الامتثال لنصائحها واحترامها أيما احترام، هذا الجميل كمم صدور النساء وأخرس أعين الرجال المتطفلة. تقول إحداهن:

- أم صنات أم الخير.

لأنها أسكنت ابنها في وظيفة ذات دخل ممتاز في إحدى الشركات الكبيرة.. تستشعر النساء حفيف عباءتها العطرية المميزة فثمة حياة تنفثها في عروقهن تسميها إحداهن أم الحياة؛ لأنها تحصلت لابنها طريح الفراش من علة مميتة على أمر علاج في أحد مستشفيات الرياض

العتيدة ليخرج منه بعد إجراء العملية يقبل تراب الأرض التي تطؤها أم صنات فترشف عينه صروف الحياة وتدابيرها من أعطاف هذه المرأة المعجزة، فلا أحد يهمه أن يفهم سر العصا الساحرة التي تفتح بها صندوق علاء الدين، فقد ظلت مخفورة بثقة منحها إياها الجميع، وبالرغم من كل التسليم المطلق بشرعية أم صنات الاجتماعية فلم تساكنني قناعة كنت أثابر على استنباتها تجاهها.. هذه الشكوك ألفيتها لدى يعقوب، فلم تخامرنا بهرجة ملاينتها للناس وتفشيها بانتهازية بين حاجاتهم اليومية فعقدنا همتنا لابتلاع أعين الليل متفحصين كل الوجوه القادمة إليها، فقعدنا متلصصين في الزوايا الغاصة بالحيرة لفتق أسرارها استجلاءً لكل المشاهد المنبعثة من موجات الإضاءات الخافتة، والأصوات السلكية الناعمة، وانفجارات الضحكات المكبوتة.

وفي مساء كنت أحتمي بصبري عن مقارفة استعجال صبياني.. قدم يعقوب بوجه يشتعل بفرحة خابية.. قال لي:

- احرز من زار أمي هذا اليوم؟

- من؟

- أم صنات وليس من عاداتها؟

– وماذا في ذلك؟ انتبه أيها المجنون لا تكشف لها أوراقنا فتغيبنا وراء الشمس، أنت تعلم هذه اللبوة واصلة وقادرة.

انتشرت فوق وجهه إرهاصات ابتسامة مريحة وقال:

– أنا لم أحرك لساني بأي شيء، بل هي التي دعتني وطلبت من والدتي الاستعانة بي لبعض شؤونها وقبل أن أولي بأحاسيس المفاجأة المنمنمة بالخوف قالت:

– لا تنسَ صاحبك.

– هذه المرأة شيطان أو إنها تتعامل مع الشياطين، همست لي بينما كنت أهمّ بالخروج وكانت للتو تلج بيتنا في زيارة معتادة إلى أمي.

ماذا قالت هذه الساحرة؟ (سألته)

– قالت أشياء كثيرة فهمت أنها تريد رؤيتنا الليلة.

– رؤيتنا. . . يعني أنا وأنت؟

– أقول. . هذه المرأة تعرف كل شيء، ما حيرني هو لمعة عينيها المخيفة وهي توجِّه الكلام بهمس مفتعل كأنها تهدد.

قلت بفرح:

– أنا أقبل التحدي سنذهب.

- لا ، ليس الآن.

- متى؟

- عندما تتخفف الأرض من الثقلين، هكذا قالت بالحرف الواحد حتى لا يلمحنا أحد، يعني بعد العشاء بساعتين تقريباً، ستترك الباب موارباً ونتقاطر إليها الواحد تلو الآخر.

حكي يعقوب مؤامرته الصغيرة الأولى بشيء من النشوة، حرك لها سواد عينيه بخفة كان يقودني إلى حالة تيه أفقد فيها نفسي، وكأنه يحقق لي ما كنت أغزله من أحلامي البائتة.. استعرت بين عروقي ارتعاشات النزوة وبرودة أطرافي المستثارة منذ ليلة البارحة على ضحكات فتيات أم صنات وهن يتخافتن بترنح من سيقان تشع بياضاً في غمرة الظلمة المشغولة بخيوط دقيقة من نورخافت، كانت عقارب الساعة تمر كقوافل جند مهزومة، وما أن شرعت الشمس تلملم عروقها الذهبية المجندلة على أديم الأرض حتى بدأت خطواتنا تقيس المسافات إليها متلعثمة بخبث الزمن المقيت الذي يتغذى على حمى انتظارنا، لم يكن الوقت مهادناً أو متسامحاً بل شرع يملي فروضه لنمد له أطرافاً من شراييننا ليمتص منها رحيق تجلدنا وصبرنا بغية تفتيت قوى تحملنا. كانت قد أينعت في حناجرنا لعنات تستفحل في صدورنا. باغتنا صوت المؤذن

المأمول لصلاة العشاء فانتفضنا زاحفين نلتئم على ما يشبه بوادر الهزيمة. وبعيد الصلاة كنا قد هرسنا آخر أنفاسنا الملتهبة متسمرين قبالة الباب بتحفز مكبوت، ما يقبع خلف ذلك الباب يمهر صورة بين أهدابنا ويعاقر قلوبنا.. كنت أسأل يعقوب بتوجس:

- هل قالت لك ذلك جازمة؟!

- نعم وأكثر من جازمة.. انتظر.

انهمرت أقدام السابلة إلى بيوتهم. أضجرنا ثلاثة رجال كانوا يقتاتون من مصادفات اللقاء ثرثراتهم.. تلافيناهم خشية استنبات الشك في أعينهم، علقنا أبصارنا بمصراعي الباب فما برحت حتى أرخى الباب، رأيناه.. لم يحكم غلقه جيداً بل ظل موارباً، يكشفه خيط نور رفيع يتسلل من بين الدرفتين. هذا الخيط الرفيع حقننا بفضول مغامرة لا محيص عنها، وعلى عجل ودون تؤدة أو إبطاء نهرنا أقدامنا باتجاهه ملقين بأسمال الخوف على كتف الجدار الذي كنا نتكئ عليه. ولجنا بحزم وإقادم عابرين من المدخل الطويل المفروش بسجاد عنابي مشجّر إلى باحة البيت مصيخين سمعنا إلى صوت أم صنات مرحبة بقدومنا وهي تحمل بين يديها مبخرة تثور منها كتلة دخان تتطاير برائحة معمول طيبة.. أملى علينا أثاث المكان

طقوسه الأولية لاهجاً برموز وألغاز وأحاجي حركت مهجنا ونفضت أعيننا من محاجرها.. أطلقناها كقطط مشاغبة تتلوى فوق كل شيء متشبثة بالجران قافزة فوق الأرائك والستائر والفرش المبثوثة. كانت أم صنات تطوف بمبخرتها رحاب المنزل إلى أن أيقنت أنها قد بعثرت رائحة المعمول في كل الغرف والزوايا حتى صاحت بالخادمة الفلبينية (ستي) كما أسمتها وأعطتها المبخرة ثم قدمت إلينا متبخترة بجلابية زرقاء ناعمة مطرزة بأشكال فراشات تبدأ بفراشة كبيرة من الصدر تلمع بألوان فضية وذهبية. كنا للوهلة الأولى نتوه عن وجهها المطمور بطبقة سميكة من المبيض تدفن به تعاريج الزمن، وقد رسمت شفتيها بلون أحمر شفايف قانٍ وعينيها بكحل يمتد إلى أجفانها وحواجبها. رأيناها حاسرة عن شعرها المقصوص إلى الكتف مطوقاً وجهها المستدير. كانت متبرجة بما يكفي لحد الاشتهاء والإثارة لمعاشرة واحدة لفك أزمة فقط. جلست إلى جواري على أريكة مرتفعة قليلاً ومريحة. كانت الصالة مؤثثة بعناية.. سجاد عنابي مزركش وستائر مخملية بلون الأرائك المصفوفة بمحاذاة الجدران بشكل مستدير لا يفصل بينها سوى الأبواب.

زرع أمام الآرائك عدد من رؤوس المعسل، وفي الأركان

علقت مجموعة مزهريات ورد مجفف، والإضاءة الخافتة تنبعث من سقف جبسي مستعار. باغتتنا أم صنات بسؤال مفاجئ وهي ترتشف فنجان القهوة التركية التي قدمتها لنا (ستي) وفور جلوسها معنا قالت:

- ماذا كنتما تفعلان ليلة البارحة؟!

ثم ضحكت وهي تقول:

- أنتما أيها الشيطانان تريدان العبث، لا يهم.

ثم توجهت إلي بسؤال خاص عن أبي:

- هل وجد عروساً تناسبه؟! كنت خطبت له أكثر من واحدة، لكنه بخيل لا يريد أن يدفع يقول: إن البنات السوريات والمصريات خير من السعوديات للأزواج ولن يكلفنه الكثير.

تحدثت عن أسرار أبي وهي تعلم أنني أجهلها وكأنها مطلعة على خفايا لا يعلمها إلا هي.. ثم انخرطت بحديث طويل عن أم يعقوب معلقة على بعض مواقفها ومتندرة بطيبتها التي تجعلها مادة لفكاهات النساء وتعليقاتهن. ضحكت فركلني يعقوب بطرف قدمه.

فتحت أم صنات صندوقاً مرصعاً بقطع نحاس أصفر كان بجوارها مستخرجة علبة دخان (مالبورو) أحمر

افتضت غلافها وسحبت منها سيجارة وضعتها بين فرجتي أسنانها الوسطية أشعلتها وراحت تمتصها وتنفث دخانها بشراهة استثارتها نظرات يعقوب المستجدية لإشعال سيجارة مماثلة، فقدمت له العلبة قائلة:

- خذا راحتكما، منذ اليوم أنتما في بيتكما.

بتنا مسروقين تظللنا سحابة حيرة وبلادة واندهاش. انتزعت فتيل كل مراهقتنا الصبيانية.. ليل البارحة نزفت أم صنات بأحاديث حفرت أخاديدها في عقولنا المشدودة إلى حكايات وأخبار عن نساء ورجال الحي وكأنها تقدم بين يدينا شهادة كاملة على أسرار لا تكشف إلا لمثلها من النساء النوادر.. وقبل أن تستكمل حكايتها اشتعل وميض (لمبة) صغيرة معلقة على الحائط المقابل بعناية التفتت إليها مطرقة ونظراتها تستحث (ستي) لأن تهب في إنفاذ أمر ما. عادت الخادمة إلى حيث كانت تلاحقها خطوات تنزح تجاهنا. حدسنا أنه رجل ولعله بمعية امرأة من زوار الليل إلا أن الوافد كان يجلب معه ضوضاء وصوتاً متهدجاً بزغ من بين أحشاء العتمة بوجه مستطيل ناحل يجثم فوقه شارب كثيف تصب أطرافه على شفتيه حاجبة فمه وله عينان جاحظتان.. لكزني يعقوب باستفزاز ظاهر قائلاً:

- انظر من القادم؟

تراءت لي سحنته من زاوية وجهه اليسرى محاولاً كشف هويته التي حركت ذعر يعقوب فكانت مفاجأة كارثية غير محسوبة.

- الضابط دحية.

- أي والله هو.

أجلت بصري مغضياً عما يدور فوقع على عيني أم صنات الضاحكتين، فأدركت أنها محض مؤامرة حاكتها بمهارة مع الكلب دحية، وذا يكشف سراً آخر خطيراً أننا سقطنا فريستين سهلتين لخبث أم صنات ولعانة ابن الحرام القواد دحية. مضت السنون ولم نصدق أن هذا الرجل المحتفى به استثنائياً من قبل أم صنات هو نفسه الضابط، كانت ارتجافات أعمارنا في حمى العشرين هي مخاض جديد لعمر يتوهج بسعير الشباب، ويتدفق بنداوة الشهوة.

أدركت أم صنات هوية هذا العمر فأملت شروطاً قاسية من قائمة حفظتها عن ظهر قلب كان أهمها الانصياع لشعائرها وطقوسها الخاصة وتهذيب علاقتنا بالمقربين إلينا وتقليم كل ما سواهم، خارج هذا المنزل تلقينا ما أملته علينا في ساعات طويلة ومملة حسبناها لن تنقضي إلا بعد أن تفرغ أعصابنا المتوترة من نزوتها، متنقلة ما بين ترغيب وترهيب.. ذكرتني بخطباء السياسة العربية الثوريين، كنت أحياناً أختلس من ركام الجفاء في

سحنتها خطوطاً مطمئنة وغير مبالية، كنا ممتنين لها مسرورين بقبولنا وهذا يكفينا ويضمن لنا اقتطاف ثمار مؤانسة خاصة في بيتها.

قال لها يعقوب:

- أنت تفصلين ونحن نلبس.

ضحكت ضحكة مجلجلة وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال؛ كاشفة غطاء هيبتها، مما أذهب عنها صرامتها، ثم استوت على عرشها تلملم أطراف ثوبها، ترتشف فنجان القهوة التركية؛ كي تضبط مزاجها وتعود إلى سمتها وتلبس ثوب رصانتها، قالت:

- هذا كلام والأيام هي الحكم بيني وبينكم:

كانت تروم إعادة صياغتنا لاستقبال علاقات جديدة ووجوه مختلفة، من أولى سحناتها الملعونة الضابط دحية.. هذا وحده صمام أمان فولاذي استعانت به لضمان كتمان أسرارها إلى الأبد ما دمنا نراهن على اكتشاف عالم جديد وتعلم لغة حياة مغايرة بالرغم من أننا أعطيناها كل مواثيقنا وسلمناها قيادنا؛ واعدين بالإخلاص لهذا البيت المتدفق عطاء ليلاً ونهاراً، ومنذ ذلك الحين ونحن مرتهنون لإشارات ومتطلبات أم صنات في كل الأوقات، ومن حسن الحظ امتلاك يعقوب سيارة

سخرناها لمشاوير وقضاء احتياجاتها، لم يكن ثمة غرابة فكل شباب الحي يتمنون الخضوع رهن إشارتها ويتسابقون لتقديم خدماتهم رداً لجميلها عليهم.

استخفنا الفرح واستبدت بنا الدهشة، منذ اليوم سنلج وكر أم صنات السري مثل أبطال مستبيحين بيت الأسرار والمتعة بلا خوف. نعب منه ما يكفئ نزواتنا المشتعلة. صرنا بين يديها مملوكين مستلبين، تؤرجحنا بين أناملها. كدمى مسرح العرائس.. بينما اللعين دحية يرشقنا بنظرات مملوءة حقداً وكراهية وتشفياً؛ منزوياً في غرفة داخلية يتهادى دخان المعسل من منخريه كتنين.

أخلت أم صنات سبيلنا إلى حيث أفكارنا المحتدمة ومشاعرنا المتشابكة. قالت بعد ما مدت يدها بقائمة طويلة من الطلبات مرفقة ورقة نقدية من فئة الخمسمائة ريال:

- تحضرون هذه معكما مساء غد الساعة العاشرة. تضعونها أمام الباب والخادمة تتناولها منكم ولا تدخلون المنزل إلا بعد التأكد من خلو الشارع من المارة، وكما أخبرتكم هذه وصيتي الأولى لكم.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تكبدنا خلال الساعتين من يديها معاناة أقلها حشر أرواحنا في أقفاصنا الصدرية، نهربها بالتقسيط الخانق واختزال عباراتنا بما

يسمح لنا بإتقان تمثيل دور التلميذ النجيب؛ لتطلقنا مغمورين بانتصار. ألبستنا كل هذه الدور المتعاورة أمامنا شيئاً من الريبة والشكوك. فلعل ما تضمره أسرار أخرى لا ندركها عن عقول الناس وأبصارهم الغافية بطمأنينة أحلام اليقظة.

أصبح يتردد صدى صوت معلمتنا وسيدة حارتنا أم صنات ويرن في أذهاننا وهي تعدنا بليال تحتفي بالمتعة.

افترقنا تيك الليلة نحمل بين قلوبنا جنيناً لا زال يتخلق حالمين بالليلة التالية.

توسدت أهدابي خيالات لفتيات طافرات بالشباب والشهوة والسكر، وأنا لا أزال أحلم بمعانقتهن، غرقت في نوم أراحني من مزاولة الرؤى والتصورات لما أنتظره في الغد.

أم عزوز وأخريات

معاناة أولى

يقيني أني بدأت أسلخ جلدي هذه الليلة كما سلخت آخر سنة من العقد الثاني من العمر. ألجمتنا أم صنات بمؤامراتها الخبيثة.. بيد أننا وجدنا عندها ما ترومه النفس. كانت تعقد في الليل أجساداً، وتوفق بين الرؤوس نهاراً.. فهي شيطان في الليل وملك مرسل في النهار، وفي الوقتين تقبض الثمن. لا أحد يسأل عن أسرار العجوز وما تخبئه. تختلف إليها النسوة في النهار - متزوجات ومطلقات - تستخلص منهن مواعيد اللقاءات الليلية سراً لتقضي فيها أوطاراً متلهفة.. أيامنا التالية ازدحمت بالمفاجآت المشحونة بالترقب وانتظار طيف الوجوه القادمة.. أولاها كانت أم عزوز التي انشطرت ضحكاتها عند عتبة الباب فلم تصمد حنجرتها المتعرقة من الضحك إلا حينما رأت وجوهنا المستنكرة، فقد أخافتها سحنة الشباب اليافعين، فأدارت رقبتها صوب أم صنات بسؤال صامت فهمته وقالت لها: هذان الشابان أبناء أختي فلا عليك احتسبيهما مثل أبنائك.

كانت المرأة القادمة - أم عزوز - في مرتقى الأربعين، بالرغم من ذلك فلا يزال وجهها ينبض بعروق الشباب وإشراقة الحياة البهية. سحبت الخادمة عباءتها من فوق كتفها وانطلقت أم عزوز ببهجة طاغية وفرح مستبد. استخرجت شريط كاسيت من حقيبتها المقلمة لتحشو به بطن المسجل. انبثق منه صوت حزين يترنم على عود يتدفق كمبدأ بأغنية لخالد عبد الرحمن:

مرحوم يا قلبي قضى طاوي الشوق

عسى المطر يسقيك ويبل الأرياق

قضيت بالدنيا طريد وملحوق

تطرد ورا اللاهين ساق لحق ساق

أخذت تتمايل وعيناها تعصران دمعاً طفيفاً متجلداً، بدأت بواكيره تبلل مقلتيها ثم أخرجت علبة سجائر (كارتييه) سحبت منها واحدة وأشعلتها، وعندما عادت أم صنات تحمل كتلة جمر ملتهب، تحضنه مبخرتها وضعت فوقها كسرة كبيرة من البخور وجعلت تتبخر وتبخر (أم عزوز) وهي تقول لها:

- والله سيجننك خالد عبد الرحمن، تعالي إلى قهوتك قبل أن تبرد.

هوت فوق الكنبة محتدمة بصخب وولع.. تمايلت مستلبة أحاسيس المكان تلاصق ركبتها بأم صنات ثم سألتها:

- متى يأتين البنات؟

تنهض متكسرة تحوك الفضاء بشعرها الأسود الفاحم كمظلة على إيقاعات كلمات هذه الأغنية، فلم تأبه لكل الأصوات الضاجة على وقع الخطوات القادمة ونحن نمطر الوجوه المعبأة بالأصباغ والأجساد المضمخة بالروائح بنظرات بلهاء ومتشهية، بينما أم صنات تتهيأ لتقمص دور الملكة الليلية، فغابت عن أنظارنا برهة أكملت خلالها أبهتها وازينت ثم بزغت كنجمة تترصد على عرش السماء للنجوم الزاحفات بمجون احتقن بالضحك الفاعم والوجوه اللامعة وفي صالة موشاة بكل درجات الألوان تستكمل بهرجها من ملابس النساء وكأنها واحدة من حفلات عروض الأزياء. بدت هذه الخلوة الليلية كحالة انقطاع عام عن طقوس المدينة العائمة بحالة من الطفر والروتين. أصبحت ويعقوب رهيني إشارات أم صنات لا نبرح نفك رموز إشارتها منفذين ما تأمر به.

طنين أصوات النساء يغلف آذاننا.. يشق هذا الطنين أحياناً أصوات الرجال بين أفخاذ النساء كانفجارات عابرة.

تنهض واحدة تجدف بقدميها الملتصقتين داخل (تنورة ستريتش) مخترقة الأجساد المتلاصقة. . تسحب الشريط من حلق المسجل، تنظر إليه وتقلبه على وجهه الثاني :

يا عذابي كيف أنا بأقوى عذابك

لا صار في بعدك عذاب وفي قربك عذاب

تستطيل أم عزوز مترنحة من كأس عرق كنا قد اكتشفنا للتو أنه ضمن الأشياء التي أحضرناها معنا دون أن ندري. فكما أوصتنا أم صنات، نأخذ الكرتون المشمع من أحد الباعة في دكان صغير يقبع على امتداد شارع الشميسي القديم. ثم نضعه أمام الباب، فننقر على الجرس ثلاث نقرات متتاليات ونرحل. مشت أم عزوز متمايلة وسط الجالسين. تمد يدها لأخرى بعين متوسلة أن تنهض وتشاركها الرقص. . تشدها إليها فتقوم بينما ظلت تتلوى بيديها وشعرها لينتقل الارتعاش إلى جسدها تدق بقدميها على الأرض محرضة الأخريات على التمايل بما يشبه النحيب. . واحدة منهن كانت تخاتل يعقوب بنظرة وله وتعلق، لم يعرها هو انتباهاً بما يليق بجمالها، لكزته في عضده بيدي فتسلقت عينيه بوادرُ ابتسامة كانت للتو تتشقق من صفحة وجهها المستدير ومن شفتين تزهوان بحمرة طفيفة خامرته بعينيها فحرثت مهجته

استقبالاً لفصول ومواسم خصب. طبع يعقوب منها شهادة ابتدائية مقارباً تجليات رقصاتها من آماقها المجندلة بين مقلتيه تلتف بحركات لولبية لتعود بوجه يحتدم بالتوفز. . كلما رأته يتمعن أنهت رقصتها منكفية إلى زوايا نفسها تسترق إلى يعقوب النظرات. . بينما هو يشتعل بين محجريها متعلقاً بين أهدابها الطويلة المرتعشة بسواد الكحل. . كادا يقتربان من غيبوبة كاملة منفصلين كمكوك فضائي عن جسد المركبة ليبحرا في فضائهما الخاص.

توسدت بمرفق يدها اليمنى على متكأ يناصفها رأم صنات. . عادت تباغت التهابات الوله المجروح من بين تقاسيم موال حزين:

إلا يا هلي شدوا ومدوا

وخلو منازلنا خليه

وأنا ما ذبحني إلا الأسمر

أبو شامتين فوق خده

تقولون وإلا ما تقولون

لي صاحب ما جوز دونه

ركنت إلى بقايا صمتها تمرغ سيجارتها فوق شفتيها الملتهبتين بحمرة داكنة كالتهاب صوت المغني الحزين. .

يتلاشى صوتها خلف ركام تأوهات ذابلة، أحست أنها لا تزال مضعضعة فاقدة الوعي فاستدارت بنصف خدها الأيمن كأنها تعيد ضبط رؤيتها للمكان. توقفت عن الحراك قليلاً كأنها تكشف للوهلة الأولى أن ثمة رائحة أجساد معفرة بدخان نبت من فمها ومنخرها قائلة:

- أها.. أنتم أبناء أخت العمة، لكنكم لا تشبهونها، كما أنكم لا تشبهون بعضكم البعض، ولكن الزمن كفيل بإعادة تشكيلكم لتصيروا أكثر نضارة وبهاء، وستتكفل العمة بالاعتناء بكم تدرون لماذا؟

كان سكوتنا هو إحساس بمهانة مستفزة، ولكن كما علمتنا العمة أن نلتزم الصمت ونتعلم مما يدور حولنا أشياء كثيرة. كانت أول النساء الغريبات اللاتي حولن شهوتنا إلى قهر مكبوت هو هذه المرأة: اتبعت قائلة:

- طبعاً لا تدرون: ببساطة حتى تشبهون العمة التي نشبهها كلنا لازم تدخلون في فلكها السحري وتصيرون شياطينها التي تأمرهم ويطيعون. فهمتوا يا شطار؟!

عندئذٍ تمدد صوت مغن يجأر بكلمات ثكلى:

جاني الليل وأنا تايه البال

نهضت مجلجلة بضحكة مجنونة ومن خلفها بعض

الجالسات يثرثرن خلف فقاعات دخان السجائر الأزرق يتطوحن برؤوسهن فتحسست فتاة يعقوب بأطراف أقدامها الطريق إلى ثغر جانبي يحجب الرؤية عن صحن المنزل متاخمة بجسدها للمسافة القريبة منه. . غمزته بعينيها للحاق بها خفقت روحه كطائر يعتلي كبد السماء واجتالته حيرة كادت أن تفوت الفرصة عليه لولا دفعي له بيدي موقظاً همة المغامرة لديه.

ليس ثمة أحد يتنبه لكل ما يحتضنه البيت الرؤوم من أصوات وحركات وسكنات، توارى صاحبي في غرفة جانبية فترة فرغت من حساب تكات عقارب الساعة. انصرفت أنا خلالها لمنادمة الجالسين مستسلماً لسطوة دحية المستشرية بإشارة ثملة من طرف سبابته. دعاني للجلوس بجانبه، قال وفمه محشو بالدخان:

- لا تزال خائفاً: انس الماضي نحن أولاد اليوم وعند أم صنات تتساوى الرؤوس والكؤوس و. . . قالها بخبث من بقايا صحو لم تطمره الخمرة بعد.

أعقبها ضحكة هوجاء انسابت مع الضوضاء مطلقة فتيل الضحك الذي أزكى اضطرام نار لاهبة.

أم صنات

لعبة ثانية

غشيت أم صنات المتسامرين عندها بأمنة تحيطها أسرار دفينة. . يتقاطرون إليها ليلاً وقت ما تخبو أنفاس الناس المبعثرة نهاراً؛ لتطفو السكينة بين التواءات الحي، يخلعون بين يديها أجساد التعب، يقتلعونها من أرواحهم الدنفة ويعلقونها على مشجب يتدلى من عتم حيرتهم المقهورة. . هذه الحيرة ضحكات (أم صنات) المشاغبة، فتشمر عن حبة خال تتراقص بغنج فوق خدها الأيمن، فتخفق حمائم المد الليلي القادمات بخفر وكتيبة تحرٍ، كي لا تسقط إحداهن بشرك هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المندسين في الرياض بين أنوف الناس ومتعلقين بأهدابهم؛ ليبدو كل انفراد ذكوري بأنثى هو محض تداعيات (زنا).

بها ومعها باتت ليالينا المنتظرة تنمو كنبتة ظل، أليفة تستشري بعروقنا، متسلقة بتمرد فوق كل شيء. . وبيت العمة رحم أمومي نتدثر بحبله السري متشرنقين كأجنة نرضع من طقوسها حكايات ومواويل وعذابات. . تشقق

أرواحنا خلجاناً تسح بالحميمية واستشعار فطري وأسئلة لا تنقضي أبداً. . وعندما تغيّب الليالي أحد الوجوه لا تبرح العمة من غدها تنقب عن سر الغياب سواء كان خيراً أو شراً. . كانت تهبنا ذعراً لحظياً ومهابة أن تبتلع الأيام أحداً من المداومين بالتردد على مملكتها. . كان يعقوب ورفيقته في ليالي سمره (هيا) ينصرفان عن الأنظار داخل غرفة جانبية يوقدان ليلهما بأحاديث تتفشى منها ضحكات عابرة:

كانت أم صنات حافلة بتراث من الحكايات المذهلة تقصها كشهادات إثبات على اقتدار حيلتها ومكرها ودهائها عن نساء يتشهين مواقعة الرجال ولا يقدرن على الخروج فتدبر لهن حيلة فتاكة ونافذة. تقول:

كنت في الحي القديم - الذي لم تحدد اسمه ومكانه لغرض في نفسها - المستشارة الحصيفة بكل شؤون النساء، يقاسمنني أسرارهن، كما يثق الرجال بي؛ لأنهم سيعثرون على بعض غاياتهم عندي، فيغضون الطرف عن هذه الحكايات من حكاياتها:

إن إحداهن ظلت تواري فجيعتها في زوجها سنوات عديدة، حينما ارتبكت مفاصله وهو يحاول استنهاض اللذة في جسده، تذكر على لسان المرأة إن زوجها تلوى فوق جسدها كهدبة رقيقة وبات يجدف بفخذيه وقدميه

منكسراً مهزوماً بلا طائل. . حتى ملت ثوراتها وانتفاضاتها المتعاقبة بلا طائل، مغرقة جسدها الملتهب بوابل من النسيان البارد، موصدة أمام اشتهائها ولذتها الحاضرة كل الأبواب التي تخفق منها أجنحة اللذة؛ ظانة أنها النهاية الأبدية، مستكينة راضية بقدر الله. . بيد أن زوجها وقع فريسة حمى الشكوك. . فمن يسكن لواعج شهوتها وهي المرأة الملتهبة دائماً؟ حتى عند أدنى لمسة عفوية تمر فوق جسدها. . تناوبته أسنان الشك المفترسة، مضرمة داخله نار الغيرة والحيرة والانتقام، ولكي يريح باله غلّق الأبواب خلفها بمزاليج وأوصدها بمغاليق حديدية إلى أن عجف جسدها وسقمت حالها ببؤس أعقبه مرض ووهن طرحها على الفراش أياماً.

تستكمل (أم صنات) حكايتها وهي تغرس سيجارتها التي لا تنطفئ بين ثلمتي أسنانها قائلة:

فلجأ إلي الزوج المعذب يشكو ما أصاب زوجته مستعيناً بي على علاجها، فعرفت منها أنه الوهن الذي صدّ نفسها عن تقبّل الأكل والشرب، فما أن رأتني حتى أقبلت بروح مندحرة تبكي بين يدي كطفل ضل طريقه فعثر عليه بعدما شارف على الهلاك. . توسلت إلي ألا أتركها منفردة وحيدة فاشترطت عليها أن تتناول ما سأقدمه لها

من أكل وشرب وعلاج.. فما هي إلا أيام حتى نهضت متثاقلة تجرجر همها. ففكرت كيف أنتزعها من عزلتها الجبرية وبما أني قد كسبت ثقة زوجها الذي لم يتوقف للحظة واحدة عن الشكر لي فقد التمست منه أن يتركها عندي لأيام أخر كي تستعيد صحتها، فلم يتوان البتة أو يتردد في قبول طلبي. وفي غضون أيام كانت قد استردت عافيتها وصارحتني بسبب علتها، ففهمت أنها الفاكهة المحرمة، ومن هنا شرعت أنسج لها خيوطاً أستلها من ظهور رجال لا تعرفهم وهي راضية مغتبطة متلذذة بشبق لا ترتوي منه.. في ليلة واحدة اختلف إليها ثلاثة شباب أقوياء فلا تخرج من نزوة إلا وتبتغي المزيد.

هذه الحكايات وأخرى كثيرة تزاحم ليلنا المشغول بالمتعة والأنس.. شرب وطرب ورقص ووجوه حسان بألوان مختلفة وأشكال متنوعة وأعمار متراوحة وجنسيات متعددة متزوجات ومطلقات.. أحياناً تأتي إحداهن برفقة عذراء تبدأ ليلها بخجل وتنهيه بمجون.. بعضهن يأتين بمعية رجال وأخريات يأتين مع السائق الذي ينزلهن قريباً من البيت ويعود قبيل منتصف الليل، إلا أيام إجازة نهاية الأسبوع فتبدأ السهرة متأخرة وتنتهي أيضاً متأخرة دون أن يلحظ ذلك أحد من قاطني الحي.. تبدأ السهرة بالتعارف

البسيط مجرد ذكر الاسم الأول، يعد كافياً أو أنه بالأحرى هو المطلوب بالضبط دون تفاصيل أخرى.. وفي مرحلة لاحقة تحين ساعة الطرب والرقص والمجون على مائدة تتنوع فيها المشروبات المجتلبة من متعاملين خاصين لأم صنات.. وعندما تتمايل الأشياء ويزاول الدوار لعبة الأرجوحة تتهاوى الأجساد على الأجساد بشيء من الاستلطاف وتحملها أيادي النزوة إلى أسرّة فردية موزعة على الغرف الجانبية بالتساوي. لم نعد خائفين نلوذ بصمتنا وندس أعيننا في كل الأشياء الساكنة والمتحركة كما كنا في زيارتنا الأولى، كما أننا لم نعد نستوحش المكان مذعورين تسكننا وحشة الاكتشاف وصدمة لذته الأولى. المشهد اليوم يتراءى لنا بدقائقه وساعاته وحتى هنيهاته وتغدو أم صنات تتحرك مثل ملكة تأمر فتطاع.

وقبيل الساعة الثالثة صباحاً تصفق بيديها كمؤشر على أزوف ساعة المغادرة.. فهي لا تسمح البتة بمبيت أحد من المتسامرين عندها لأي ظرف حتى لو اضطرت لحذفه على قارعة الطريق، وكلهم يدركون ذلك جيداً، لذلك يقتصد بعضهم في الشرب كي لا ينزف ويجد نفسه عاجزاً عن قيادة سايرته.. وقبيل أن تهيم خيوط الصبح على

مفارق الليل. . تقف أم صنات منتصبة مثل نخلة شامخة في تأهب محسوب لموادعة أبناء الليل، ووقتما يتلاشى ضوء آخر شمعة معلقة على جدار جانبي تنطفئ الأصوات إلا من هديلها. . تصفق بيديها موقظة الجميع من سنة بدأت تخامر الأجفان.

أما العشاق الوالهون فلا يتنازعون فتيل اللهفة والاشتياق الأبدي حتى تتدخل العمة بصرامة مباشرة نافضة عن أرواحهم نداوة الألفة والمتعة، وهدهدة الأنفاس، ورطابة الأجساد، فيهب الجميع متأهبين لمغادرة المكان بيت اللذة والشبق والمجون، تلتقط النساء عباءاتهن المميزة بنقوش خاصة وتحرص العمة على تسييرهم من البيت مثنى مثنى لكي لا تحدث جلبة تنتزع النائمين من فرشهم وتدحرج أعينهم بخوف إلى الشارع فينكشف المستور. كنت أطوق أنفاسي منتظراً تضميد كلمات يعقوب النازفة حباً وغزلاً في قلب (هيا) المرتجف كأرض يابسة هطلت عليها أمطار غزيرة في لحظة، والبروز إلى معابر الطريق لتأمينه لوفود الليل حتى رحيل آخر زائرٍ مترهلاً برائحة العرق البلدي وهو الضابط الملعون دحية.

يعقوب وهيا

معاناة أولى

مضى يعقوب يثوّر مهجته بما تركت له (هيا) من أيام غادرة. . أبحر معها في فضاء ساحر على متن سفينة تصارع أمواج أعالي البحار مصنوعة من قوس قزح. ظل يلملم المدى بين يديه ويسرج كلماته، ينفض منها عبارات تتراقص على أنغام الحب. . يرسم وجه حبيبته من كل اتجاهات السماء ومكنونات الأفق: من شمسه وقمره ونجومه وسحابه القطني الكثيف وأمطاره وحتى طقوسه الشرسة يشذب منها شجنه وينضدها في عقد كريستالي لامع يعلقه على صدر حبيبته. لقد نذرت نفسها ليعقوب واشتغلا معاً بتطريز أحلامهما على بياض الشمس البكر حيث كانا يقضيان الليل كله حتى إشراقة الصباح وهما يرتادان المستقبل بأحلام واعدة ناذرين نفسيهما لهذا الحلم. . وفي ليلة مكفهرة غاضبة لم تأت (هيا)، انتظرها بروح شفافة لا تمل الانتظار مضى أكثر من أسبوعين. فبدأ الأمل يتلاشى كحلاوة قالب سكر يذوب في الحلق ويخبو مذاقه. انطفأت آخر شموعه التي أوقدتها في قلبه

واحترقت روحه ساعة كشر الزمن عن وجهه القبيح، أفصح عن مكره، توارى وجه حبيبته خلف جدران رخامية مجهولة بلا اتجاهات في مدينة تعيث بها الأسرار فلا تحمل سوى أقنعة. ألمحت له أم صنات، أكثر من مرة أنها متعة ليلة مارقة لا تعترف بالأسماء أو العناوين سوى وجوه طمرتها اللهفة وأجساد تمزقها الرغبة. صار يخاتلها من شق كهفي داخل مغارات روح مردومة باليأس، كان تجريده من أقوى سلاح أزلي وهو الحب بمثابة فخ حاول أن يتشبث بكل قشة تطاله انتفاضات يديه المتعرقتين للخروج منه. بحث عن رائحة حبه المسروق وعن ظلاله.. فتش عنه حتى في ارتعاشات ألسنة اللهب في أوصاله.. من بين كل الأصوات التي تلاحقه لم يعثر على وجهها ولأنه لا يريد أن يصبح مجرد جسد تحمله قدمان مليلتان مكتئبتان تحركهما طقوس المدينة كمقطورة. ذكرته يوم وفادتنا الأولى إلى بيت الأسرار ماذا قالت أم صنات. همست قائلة:

- أهلاً بكم في بيت المتعة المكسو بالأسرار.

فلم تعد ترمم كلماتي له عروقه الحامية أو ترطب نفسه المتشققة يبساً. كنس عن عظامه ارتعاشات النزوة الليلية في بيت العمة.. التهمه عطشه منزوياً في ظلمة

غرفته حسيراً يتكسر حداداً على ما آلت إليه حاله داخل زاوية قصية من روحه المعذبة، وقلبه المختلج باليأس والأمل الكسيح. كنت أمر بين يديه خفيفاً فلا تهتز عيناه الواجمتان وهما تسوخان في غيابة جب سحيق، أكتفي بمواساة عاجزة له ولأمه المكسورة النائحة على ابنها المسحور؛ متوسلة بي أن أبحث عن سر جنوحه إلى عزلته القاتلة. تقول:

لعله مسحور ابحث لنا عن من يفك سحره أو يقرأ عليه، بالله عليك يا ولدي أنت مثل أخيه فلا تدعه يموت.

لم يكن يشكو من علة ظاهرة، وكنت الوحيد الذي أدرك مصابه حتى خلته مسحوراً فعلاً، سألت له كل العرافين والسحرة وكلهم يعززون قناعتي بأنه قد شرب سحراً لا شفاء منه، اتصلت أمه بإخوته من أبيه وبكت بين أيديهم متضرعة إلى أن أخذتهم مسحة من الرحمة جالبين له صفوة من الراقين الذين نسبت إليهم بعض المعجزات في فك السحر. كان بعضهم يأتي إليه عصراً بالمنزل ويجالسونه إلى قبيل أذان العشاء دون فائدة ترجى. في أوقات تالية أصبح في حفاوة خاصة من لدن كتيبة من الشباب المتدينين، يتوافدون عليه بعيد صلاة العصر فلا يخرجون إلا ساعة اندحار الشمس في باطن الأرض..

لقد هيأت لهم أم يعقوب حسن الاستقبال وضيافة كاملة لم أر مثلها قط. لما رأته من تبدل حال ابنها. إلى أن صرت أراه يخرج معهم إلى صلاة المغرب ولا يعود إلا في ساعة متأخرة. كنت أرقبه وأنا عائد من بيت أم صنات فجراً يخرج من المنزل متجهاً نحو المسجد مطموراً بعباءة وبرية، فلا يبادلني أدنى التفاتة. أسمع صوته يعلو بتراتيل آيات قرآنية كأنه يطرد روحاً شريرة تجتلد حوله ثم ينفث ذات الجهات الأربع، ناديته فلم يسمعني. مشيت أمامه فتصاعد حسه بتلاوة القرآن دون أن يحرك جفنه نحوي، حتى راعني منه ما رأيت فوليت منه فراراً.

أصبح متديناً غضاً تنز فوق حافات وجهه لحية جعداء كثة وصارمة.. تبزغ من عينيه حميَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكسوه ثوب قصير وشماغ يصب فوق رأسه بهيبة طاغية، يلفه بحميمية مفرطة، يشاغب اصطفاق الرياح. كان بارعاً في تقويض هواجسه الشيطانية وملتفاً بشكل لولبي حول الجماعة يتجاذبه همها وانتماؤه السماوي.. انشطر عن الحي وابتلعته غيابة مديدة، ألفيتني خلالها منزوياً تشذبني وحشة الرفيق المفقود.. كانت أياماً كئيبة وقاسية. هجست إلى نفسي بحثت داخلها عن تلك العروق الهشة لترميمها فربما كانت سبباً

في تقاعسي عن كوكبة يعقوب فلا أبقى أعزل أو مجرداً من سلاح أطعنه في أحشاء كل أسئلتي المتورمة، وكنت كلما التقيته معرضاً واجماً متلافياً ارتطام أعيننا ببعضها تنغرس أسئلة تعذبني وتوصد كل أبواب يمكن الانزلاق منها إلى جماعته، لا أصدق أنه طمس تاريخاً تتحدث عنه خطواتنا المرسومة على قارعة الطريق والجدران القانطة من تلوينها بعباراتنا السمجة وتضحك لها كل الأبواب الزائغة على مغامراتنا الليلية.

في تجن فاحش أدار بوصلته نحو شباب مزدهين بحركة جماعية لا تنفلت عن مساراتها المحددة سلفاً كأنهم إطارات لعربة يحركها قائد واحد بامتثال وتبعية متناهية. . آخر لحظة رأيته كان هارباً برفقتهم لم يبادلني حتى إشارة تنبئ عن وجودي حوله، ثم رأيته مكسواً بذقنه الكثيفة. تلمع عيناه بانكسار حاد يستبطن المقت. . كان قبلاً يخرس أنين الفتيات الساحرات ويقطع وتيرة شبقهن الأزلي.

القدر

لعبة أولى

ضجّ الحي كله ذات نهار قائظ وتراكضت الأنفاس قبل الأعين متحلقة حول بيت أم صنات يستطلعون الخبر. (أم صنات) وجدت مطعونة بسكين حاد فوق عرشها. جريمة اقترفتها أيادي السكون الليلي وكانت بمثابة خلاص ورحمة تنزلت في ساعة صمت.. التففنا متحلقين حول فوهة الباب مفتوحي الأعين صوب الجثة المعبأة في كيس نايلون متين يزفها رجال الإسعاف إلى بطن السيارة.. كأني لمحت الضابط دحية بكامل زيه العسكري يدس جسده النحيل في سيارة نجدة أثبتت حضورها في ساعة مبكرة.. ظللنا نطوقها بوجوم إلى أن تلاشت عن الأنظار: تبددنا بعدها بأقدام مثقلة بالسؤال، وبالنسبة لي ثمة اختلاجات ومشاعر مختلطة ثمة همهمات عفوية انطلقت من حناجر الرجال:

- أراحت واستراحت.

سمعتها من أبي قبل أن أطلق عنان سيارتي إلى عملي. ظل الرجال ممتنين لساعة القدر التي أخذتها بسكون وطمأنينة وكأنه الخلاص من نجاسة دنست سمعة

كثير من النساء، أما الرجال الباحثون عن لذات النجاسة فقد انتابهم حزن حملوه بين جوانحهم على حذر.

غدت الأيام بعد أم صنات ثقيلة وبائسة برتابة قاتلة، فقدت فيها صديقي العزيز. طفقت أشاغل نفسي موزعاً بين عملي الجديد واستراحات الرياض الشمالية الممتلئة بشباب يجمعهم الفراغ ويبددهم الزهق. لم تعد السنوات المنصرمة تغيثني بحالة نسيان، كنت أستشعر أهميتها وحاجتي إليها ولم تعد متعتي الجاهزة من الأصوات المرتمية صدفة عبر الجوال من الباحثات عن متعة صوتية جاهزة أو بما يشبه التسول المكشوف لبطاقات سوا وممارسات أخرى بلهاء تنتزع فتيل همومي ومللي وطفشي حتى أسلمت قيادي طيعاً لإرادة أبي اللحوح بتزويجي، فلم تنصهر أنفاس بضعة أيام إلا وقد عثر لي على زوجة؛ هي ابنة العم سالم التاجر البسيط في محل لبيع قطع غيار السيارات المستعملة، أكثر ما كان يقززني منه رائحة الوقود الفائحة من جسده وأثوابه والزيوت الملتصقة به منذ الأزل.

- هل عنده بنت؟

سألت أبي مستغرباً بما يشبه السخرية، فلا بد أن تكون شبيهة بأبيها المقزز. قلت:

- لا بد من رؤيتها.

كانت إجابة مطمئنة لأبي الذي قال على الفور:

سأطلب ذلك من سالم وأسمع ردّه عصر هذا اليوم، ومهما كان رده فلا تفوتها، أبوها عنده خير وسيعينك.

فهمت لب القضية. قلت: ربما محل الغيار الحقير يدر أموالاً لا بأس بها وهذا بحد ذاته مطمع لأبي:

وفي المساء وقبل أن أهم بالخروج من البيت إلى مكان أجهله حرص أبي على إطالة أمد حديثه معي؛ محاولاً إخباري برد العم سالم ولم تردفه الحيلة بتحريك لسانه وهو لا يعلم أن ابنه يتحرك بجسد مفرغ بلا هوية أو وجود حقيقي يعبر به عن نفسه. قلت معفياً أبي من حراجة الموقف:

- لم يوافق؟

هز أبي رأسه، وهو يمسد لحيته البيضاء بما يبدد سكوني. إذاً لا مناص، لأستسلم أخيراً لإرادته.

فألقيت عليه عبارة رطبت حلقه وحركت وجومه. قلت:

- أنا موافق.

نهضت أقبّل رأسه وخرجت أملأ أذني بضجيج السيارات ورئتي بعوادم الوقود: قلت في نفسي بمسحة عزاء:

- لا مشكلة.. كلهن على وتيرة واحدة.. جربت

نماذج كثيرة منهن لا يحسن في حياتهن اليومية أكثر من الثرثرة والأخذ بشراهة.. تجربة بيت أم صنات كافية لم يعد ثمة وقت يمكن إراقته للحب، فتجربة يعقوب درس فهمته جيداً، فانصرفت إلى هوايات أخرى جميلة ابتدأت من تجريب المطالعة المتعمقة شيئاً ما، ثم الغوص رويداً رويداً في عالم الكتاب السحري.. كان نواتها البحث عن إجابات تلذع أسئلة ملعونة تراودني كالسحر. ارتعشت منها عروقي واضطربت لها أضلعي، فحواها بحث في مستحيل هذا الكون الغامض وعن هذه العلاقة الروحية بين الغائب والحاضر، لعل انقلاب يعقوب بالبعدين: النفسي والروحي أسفر عن مشكلة جرفتني لتيارات متصارعة لا زلت أبحر في ريعانها لم أستفق منها حتى لحظة اكتشافي ذات ليلة وإنني مقابل تماماً، وبلا فاصل، لجسد يعرف نفسه أنه زوجتي. لم يخامرني شك أنني داخل مصيدة يجب أن أخرج رأسي من ذلك الصندوق النحاسي المتين لمقارعة واقعي المكين. قلت لها:

- أنت تدعين أنك زوجتي فساعديني كي أفهم ما تعنين! ولم تفهم هي فانبثقت من وجهها أكبر علامة استفهام وباتت معلقة في وجهها إلى صباح اليوم التالي وخلال شهر كانت علامة الاستفهام كوحمة سوداء قاتمة

وكئيبة تطفو فوق وجهها لم تتمكن من قلعها فانصرفت إلى صندوقي النحاسي الحسري أفتش فيه عن محاولاتي لفك رموز اللعبة. . بينما هي تزاول عادتها اليومية: إما متسمرة أمام شاشة التلفاز، حيث العالم كله يصب قنوطه وشحوبه في بيتنا الأخرس ونظل نحن نزاول صمتنا بحرفية متناهية ثلاث سنوات كئيبة كسرناها معاً كأعواد قصب، فلم تعد تنفع معها مهارتي بالتغزل بالنساء كما تعلمتها وأتقنتها في بيت أم صنات؛ لأنها ببساطة لم تكن مثلهن تجيد حياكة العبارات الشبقة وتصنع اللهفة. لم ترتشفني كإسفنجة عطشى. أفقت ذات صباح شتائي قارس فلم أعثر عليها لعلها هربت من سخنة الملل، كانسة كل أيامي معها بلا بقايا ذكريات جميلة تفتح نوافذها لها في المساء وتغازلها. أيقنت أنها كنست طريق العودة خلفها، فلن تعود. أبصرت نفسي في فضاء دور علوي يضج بالصمت الانفرادي فأطلقت قدمي قافلاً إلى بيتنا في حي الخزان ألثم وجنة أبي وأقبل جبينه الملتهب بالسواد من أثر السجود. فهم فحوى نكوصي إليه فلم يسألني مكتفياً بقوله:

- لم يوفق الله، والحمد له أنه لم يهبكما أولاداً.

أنا وأم عزوز

معاناة ثانية

تصرمت أيامي منكباً بين نثار كتب وفوضى أوراق تعيث بها أحبار مدلهمة بالأرق والملل، كانت محاولات أولى لفلسفة الكون والوجود، صقلتها بسفرات متكررة لبلدان عربية وأجنبية أحببتها وأحبتني لكل واحدة منها صوت وصدى وصورة وتاريخ بطولات، فلا أعود منها إلا ويغلبني الحنين للرجوع.

بت معلقاً بذاكرة أيامنا الخوالي خلف تيك الجدران الخاملة من بيت أم صنات. كنت أرمقه بروح تتفشى فيها الهزيمة بعينين مكتئبتين، لا أحد من العابرين يلقي كلمة عزاء وترحم سوى امرأة كانت تبطئ مشيها حينما تعبر بمحاذاة البيت.. رأيتها أكثر من مرة مثيرة فضولي واستغرابي فتعلق السؤال في رأسي المشغول بأطلال تثير الشفقة والبؤس، فما بال هذه المرأة غريبة الأطوار.. فكرت متخذاً قراري بمحاصرتها للكشف عن هويتها وفي أقل من خطوات مطاردة اكتشفت ذلك الباب الذي تلج منه وتصفق بابه الحديدي الصدئ بعنف.. هذا هو بيت سعدون الرجل الذي يعيش مغيباً في منزله الذي لا يبرحه

إلا في مناسبات نادرة يخرج فيها مهزوز الأركان مضعضع الجسد يتكئ على عصا ثقيلة.. سمعت عنه أشياء كثيرة، منها أنه منادم لكأس لا تفارقه، ومنهم من سمعته يقول: إنه تعرض لحادث مروري أصاب أجزاء من رأسه مما أثر على حركته ونطقه.. لم يكن يعني لي كل ذلك شيئاً إلى اللحظة.. حدثتني نفسي وحدثتها لأيام وليالٍ لكشف ما يستتر خلف هذه العباءة الثقيلة اللامعة. صرت أترصد لها بين الأزقة والطرقات أتابعها وهي تستقل سيارة ليموزين. أين تذهب؟!!، كان ينزلها بجوار منزل في حي منفوحة جنوب مدينة الرياض، منتظراً إياها إلى أن تخرج وفي كل مرة تخرج من ذلك البيت الذي تغيب فيه قرابة الساعة تحمل بيدها حقيبة متوسطة الحجم.. تسارعت نبضات فضولي المزدحم بعلامات الاستغراب، فقعدت لها ذات مساء في طرف الزقاق المفضي إلى الطريق العام حيث كانت تقف انتظاراً لسيارة الليموزين، إلى أن برزت تفاخت بقدميها الطريق من عباءة مترهلة تكسو جميع أنحاء جسدها.. وما أن شمخت واقفة إلاَّ وقد فاجأتها بمقاربة باب السيارة الأمامي لصق خاصرتها فنكصت إلى الوراء جافلة فتحت زجاج النافذة قائلاً بصوت وطيء تسمعه هي فقط:

- لا عليك. . . اركبي أوصلك:

كأنها لا تسمعني أجالت برأسها في كل الاتجاهات ثم فتحت الباب وركبت وهي تقول:

- أرجوك أسرع كي لا يرانا أحد:

هذا الصوت تحسسته أذناي وميّزته بين أصوات كثيرة فانتابتني حالة أشبه بالسكر. قلت:

- أم عزوز!!! أنت أم عزوز لا تقولي لا. . . فأذناي لا تكذبان!

صمتت وكان الدليل القاطع على أنها فعلاً أم عزوز قلت:

- مرحوم يااللي في ثرى العود مدفون.

هزت رأسها مغمغمة:

- الله يرحمك يا أم صنات.

التقطت شريط كاسيت من صندوق الأشرطة وألقمته فم المسجل فانبعث الصوت المترنح بوجع نازف من أغنية لخالد عبد الرحمن سألتها:

- إلى أي مكان تودين الذهاب؟

أجابتني بلا مقاومة وهي لا تزال طريحة الدهشة:

- إلى حيث تشاء، شريطة العودة قبل حلول العاشرة.

ومضينا نمشط طرقات الرياض متنقلين بين الأسواق أخذت منها أشياء دفعت ثمنها دون تردد، ثم اتجهنا إلى أحد المطاعم العائلية جلست ملتصقاً بها أتشمم رائحة عطورها الرديئة، بيد أنها حادة ومثيرة لدرجة الوحشية. جذبتني إلى معانقتها ولثم شفتيها وتمرير يدي بلطف من تحت عباءتها على مساحات جسدها، ارتعش لحمها المتقطر عرقاً وشهوة قالت:

- أرجوك لا تبالغ بما هو فوق احتمالي، وإلا لوجدتني أتزحلق بين يديك ممددة على الأرض لا يفيقني إلا دواؤك السحري.

قلت مستجمعاً يدي وململماً بقايا قبل ساخنة:

- لا . . أرجوك لا نريد فضائح.

تناوشنا بأحاديثنا كل شيء: أم صنات والضابط دحية ويعقوب ومعشوقته هيا.

في أيام تالية شغفتها أم عزوز بالسهر. بعدما كنت قد علقت وجهي على رداء الليل يسافر بي على أوتار مواويل ممزقة باحثاً عن كسرة حلم بائت كنت أنهل من أوراده في بيت أم صنات وها هي اليوم أم عزوز تستهوي اختزال اللحظات السعيدة بآهة تنثها من صدر متجمر وتستطيب كعادتها التمايل على صوت أغانٍ مبحوحة وحزينة. كنت

أسري إليها عندما يحجب الليل قامة النهار المديدة وينهض شامخاً بعباءته السوداء المهيبة. . تستقبلني لدى الباب وتأخذني إلى غرفة قصية مكدسة بأثاث قديم وقد أعدت متكأ يناسب ليلة احتفالية لرجل وامرأة كاملة تخطت الأربعين، وبالرغم من كل مصائبها فلا تزال مسحة النضارة تعلم على بياض وجهها الخالي من تعاريج العمر وجور الزمان باتساع حدقتي عينيها تحفهما أهداب طويلة سوداء حددتها بعناية بقلم كحل رفيع، وبالرغم من نحالة خاصرتها فهي تعبىء أوراكها بردفين مهيبين داخل تنورة (سترتش) وردية هيجت بذوراً كنت أخبئها في محاجر نزوتي المكبوتة. . انتبهت إلي ساهماً مأخوذاً بانتشاء كشفته عيناي اللتان لم تقلعا عن محاورة ارتفاعهما وانخفاضهما في إيقاع متناغم كأرجوحة لم أع إلا على ضحكة حاولت كظمها بباطن يدها. . بيد أنها تزحلقت مندفعة مشيرة إلى متكئي وهي تقول:

والله عجزت عن تصغيرهما، ملمحة إلى صدرها وردفيها - بالرغم من وزني الخفيف.

سألتها مازحاً:

حتى مع الرقص؟!

اشتعلت ضحكاتها وهي تغمزني بخبث قبل خروجها

تجر الباب وراءها وفي أقل من خمس دقائق عادت تحمل بين يديها صينية شاي وقهوة وتمر، إلى جانبه صحن حلوى ومكسرات وجالت عيناي بتقصد فوق الصحون الزجاجية الفائضة بأصناف الحلوى والمكسرات قلت:

هذه المزة فأين الشراب؟

- فزعت لسؤالي وقالت:

لا تقل إنك أدمنت الشراب، وإن كنت فأرجوك لنفض صداقتنا من الآن، أنا أبحث عن رجل يضمد همومي. أوقد أحاديثي معه بما يلتهب داخلي ويكاد يحرقني. قلت بتشوق إلى سماع حكايتها:

- يا الله أنت تتألمين؟!

قالت:

- وأكثر من الألم معاناتي الدائمة.

- أنا لا أشرب إلا بأمرك سيدتي وكلي آذان صاغية سأكون لك بمثابة المحرقة لكل همومك.

- لا أريد أكثر من الاستشفاء من حالة القهر والوحدة.

دلقت حكايات لأول مرة أسمع مثلها من امرأة تعاني من هذا القهر والاستبداد.

أول ما أخبرتني به وهي تحوك ضجرها من معين

الألم المنتشر بين أحداقها: زوجها وابنتاها المناهزتان رتبة فتاتين تقامرهما الأيام على عرسان المستقبل، زوجها الذي دشن حياته الوظيفية بقدرات فريدة يحسد عليها أكسبته ثقة رؤسائه وحبهم له كانت تعد بالنسبة له ممتازة تؤهله للترقي السريع لولا انسياقه خلف (شلة) من الموظفين الفاسدين فانجذب إليهم مستغلاً قربهم من بعض ذوي النفوذ متوخياً ترقية ناجزة، فالتأمت نهاراتهم بلياليهم يقضون أطرافاً منها في ضيافته... تقول وهي تكرش بهموم تصفها أنها كالجبال:

- هؤلاء لم يتركوه في دعة واسترخاء معي ومع ابنتيه بقية يومه، بل لا يملون التطواف حوله، فما أن يخرج من عمله ويستريح قليلاً إلا وتبدأ اتصالاتهم ثم يتدفقون بلا حياء أو مراعاة لحرمة البيت وأهله، فلا يغادرون إلا ساعة شروق الشمس، حتى صرنا لا نراه إلا قليلاً من الوقت. تلاشت متعتي معه وأصبح لا يأوي إلى فراشه إلا زحفاً بقدميه فيهوي بجسده المضنى ورأسه الدائخ كالمنحور تنش من فمه رائحة نتنة أهرب منها بقلب جسدي إلى الجهة الأخرى واضعة فوق أنفي لفافة سميكة تمنع تسرب الرائحة إليه... وكنت كلما فزرت صياحي وغضبي في وجهه أستل من جيبه رزمة نقود يكبت بها بقية صوتي وأوجاعي

وتعاستي، كنت أسأله عن سر هذه الرزم التي يفتلها من جيبه مثل السحرة وفي كل مرة يجيبني قائلاً:

- يكفي أن تصير النقود بين يديك فلا تسأليني عن شيء، كنت أغض الطرف عن سكره وعربدته الليلية، فقد أصبح يستطيب ويستلذ مواقعتي مخموراً بالرغم من قرفي منه، في المرة الأولى مانعته فضربني بكل وسيلة ممكنة منها يداه المتدليتان مثل خرق ذائبة إلى أن تنهك قواه أرأف لحاله أحياناً وأهبه جسدي باستسلام، ينهشني تارة مثل كلب مسعور وتارة يجردني ويكتفي بالتمطي فوق جسدي، إلى أن تند لزوجته سريعاً ويتركني تعبث بي النشوة وتتقاذفني الأفكار، متلوية على شهوة لا تنطفىء، لذلك أكره هذه اللحظة المسروقة وهذا الاغتصاب.

- هل كان اغتصاباً؟ هو زوجك؟ (سألتها).

- نعم هذا اغتصاب.

كان في فمها كلام كثير، حجبته غصتها ولسان حالها يقول (الذي لا يمنح الكفاية هو مغتصب، الذي يعاجل شهوته ويترك الطرف الآخر معلقاً بحبال الانتشاء الغليظة هو أقسى وأشرس من المغتصب التقليدي..).

- قد تستغرب... ولكن الفكرة ببساطة متناهية تمثل في أنه لا يستطعم عذاب النار سوى مجربها، كنت أحترق

بنار الشهوة وأعالجها ببعض المسكنات الوقتية بانشغالاتي ببعض الشؤون الخاصة. . ووقتما يقترب إلي يشعل ناري ودائماً ما يكون في ربع الليل الأخير يكون هو قد أفرغ في جوفه آخر قطرة من قنينته، ثم يجيء مجرجراً جسده مبتغياً مواقعتي، وحينما يقدح شرارة انتشائي يكون هو قد خمد يغط بشخير تفوح منه رائحة نتنة. كم حمدت الله أن الوقت لا يسمح لي بالخروج وإلا لحدثت الكارثة وقدمت جسدي هدية مجانية لأي رجل عابر.

أخبرتني أنها لم ترتح حتى ارتخت أطرافه الذكورية وخبت آخر جذوة كان يشعلها من كأسه، وذبلت قواه. كان هذا الإعلان الصريح والنهائي بمثابة (لافتة) عريضة تحمل انكسار فحولته، أحس بهزيمته، معترفاً أمامها بتضاؤل، أنه لا يقوى على منحها حقوقها الزوجية الكاملة. كانت قد حمدت الله أنه منحها أخيراً جسدها، قالت:

- لقد أعفاني أخيراً من الإحساس المقرف بالإهانة.

كان هوانه وصغاره أمامي مقابلاً تماماً لحريتي الكاملة أنا وبناتي.

كنت أطرق مصيخاً سمعي إلى حكاية أم عزوز دون أدنى مقاطعة، اختلست بعض الوقت السانح وسألتها:

وماذا عن ندمائه؟

- أمسى بيتنا حانة يضيفهم بها في الهزيع الأول من الليل، أسمع أصواتهم وانفجارات ضحكاتهم الهستيرية، أهرع إلى بناتي ألملمهن في حجراتهن وآوي إلى غرفتي بعد التأكد من إحكام غلق الباب الأوسط الفاصل بين مجلس الرجال وبطن المنزل مبتعدة عن ضجيجهم وترنحهم. لقد تعلمت هذا الدرس الأول باكراً بعدما اقتحم أحدهم ذات مرة علي غرفتي مغافلاً زوجي وكاد أن يختطف مني مراده، لولا قوتي ومدافعتي له، فصرت بعدها أغلق الأبواب الوسطية ولا أسمع لزوجي بالدخول إلا ساعة تأكدي من انفضاض من حوله..

وفي أيام تالية اكتشفت أنه يخبىء في أرفف علوية من خزانة غرفة نومنا زجاجات خلتها في البداية زيت زيتون، تجرأت على واحدة منها وفتحتها وكانت رائحتها نفاذة تشبه إلى حد ما رائحة خل قديم أو شيء من رائحة فم زوجي، تعرفت عليها مباشرة.. وما أقلقني هذه الكمية الكبيرة فليس من المعقول أنها للمزاج الشخصي ولكن كيف أتوصل لإجابة تريحني من شكوكي فاهتديت إلى سؤال بريء يعفيني من حنقه الدائم. كنت فقط أبحث عن اعتراف بأنها للاستخدام الشخصي حتى لو كان كذباً:

- لم تقل لي إنك تتجر بزيت الزيتون؟

قال لي:

- أي زيت زيتون؟

قلت:

- هذا الذي تخزنه في الأدراج العلوية.

انتفض من مكانه مرتبكاً وهو يقول:

هذه ليست زيت زيتون وأنت تتغاشمين، ولكن إياك والمساس بها أحذرك.

سألته:

- إذن أخبرني الصدق... أنا أشك أنك داخل حيز الممنوع وأخاف عليك من هذا الخطر.

فلم تمهله حالة السكر. اعترف لي وهو يبكي كطفل أضاع لعبته وراح يبحث عنها، قائلاً:

- وظيفتي التي أعمل بها لا تكاد توفر لي قيمة زجاجة أسبوعية من هذا النوع الفاخر الذي تعودت عليه.

قلت:

- لماذا تعودت عليه؟

أجابني بقوله:

سؤال لا معنى له تعودت وخلاص... المهم أصبحت أحصل على متعتي في الشراب إضافة إلى نقود مقابل توزيعها.

- هل أخبرك كيف تجلب إليه ومن الوسيط في ذلك؟

سألته دون فائدة مستمرئاً المعاقرة حتى أصبح مدمناً رسمياً. . . مبدئياً أصبح لا يذهب إلى عمله إلا متأخراً. تعاطف معه مديره المباشر سامحاً له بذلك بشرط ألا يتجاوز العاشرة. عانيت الأمرين في إيقاظه حتى أنني كنت أحمله كهدبة بالية بعدما تلاشى وزنه وأدس جسده تحت الصنبور وأحياناً أدلق على وجهه الماء أحممه كطفل صغير إلى أن فقدت الأمل فيه وخاب رجاء مديره في الإفادة منه في عمل ما، فطلب منه أحد أمرين: إما الاستقالة أو التقاعد وكان أحلاهما مراً. رتبت إجراءات التقاعد سريعاً وهو مخفور في شرنقته لا تجدي معه كلمة ولا تحرك ضميره نصيحة. ظل يكرع ليل نهار حتى نفدت آخر قطرة من قعر قارورة. . بدد الشراب آخر ما فضل من قواه ووهنت عظامه وقصر نظره ونحيبه، فانزوى منكسراً بكأسه مغيباً وجهه عني في مجلس الرجال وحذرت بناتي من محاولة الدخول عليه وهن في عمر المراهقة. . وفي الليلة التالية لم يغمض له جفن يتضور من أوجاع وآلام مبرحة في رأسه وجميع أوصاله لم يفد معه أي مسكن فخرج إلى الطريق بحثاً عن رائحة تدله على جرعة شراب، حرك سيارته الواجمة منذ أكثر من أسبوع ومضى

لا يدري إلى أين، وعند حلول الساعة الثالثة ليلاً رن جرس الهاتف أكثر من مرة ملحاً على الإجابة فابتدرته في المرة الثالثة وكان الصوت مرتبكاً وحاداً يقول:

- منزل سعيّد:

أجبته:

- قصدك سعدون.. نعم.

- معكم مركز الشرطة وجدنا والدكم واقعاً على الأرض.

- كيف هو الآن؟

- لا... الحمد لله عملنا اللازم حتى أفاق.

اتصلت بجارتي ملتجئة إليها. توسلت إليها أن توقظ زوجها لأمر في غاية الأهمية فلم تنقض أكثر من ربع ساعة إلا ونحن ماثلون أمام الضابط. كان شاباً يعلق على كتفيه نجوماً لامعة ومهيبة حاد الملامح يميل إلى السمرة. استقبلنا بترحيب، بينما كان زوجي جالساً فوق كرسي جانبي. قال الضابط:

- الحمد لله يستطيع الذهاب معكم، ولكن أحرصي ألا يخرج وهو مخمور.

آثرت الصمت معضدة لأبي عزوز والتفت الضابط

بعينيه الساهمتين نحوي، كان خماري شفيفاً لم يوار ملامحي بما يكفي، وكنت أرصد نظرات ذات معنى أفهمها جيداً. قال:

- أرجو أن تتصلي غداً لإكمال المحضر وطمأنتي عليه.

قالت أم عزوز باعتراف ومكاشفة واستفزاز.

- أنت تعرف هذا الضابط.

أسندت جذعي إلى ظهر المخدة المقلمة بالأحمر والأسود قائلاً:

قصدك. . . ؟

- نعم هو (دحية).

- ابن الحرام وهل تركك وشأنك؟

- تركني؟ أنت تمزح الملعون صار يصبحني ويمسيني بمكالماته الخبيثة، وكنت من قهري وزهقي وسوء حالي أحتاج إلى إنسان أفضفض له فانسقت إلى محادثاته الطويلة. تحدثنا كثيراً فألفيته مستعداً لتوفير الشراب لزوجي الذي كلما حلّ المساء ينهض صوته بهياج يمزق القلب أربكني عرضه المفاجىء. . . رجل أمن وماذا عساي أن أجيبه؟ هل أرفض وأتحمل مغبة التعثر

بمثل هذا الحقير، أم أوافق وأسقط فيما لا أريد فلم أعر طلبه أي اهتمام.

وفي المساء سمعت قرع الجرس وسألت من الطارق فكان هو أخذتني الدهشة وتملكني قلق.

- ماذا تريد؟

قال:

أريد مقابلة سعيّد لاستكمال المحضر.

- هنا أدركت أنني أقع في ورطة ومطب هذا الهمجي، ففتحت له الباب وتركته مواربا مفسحة له الطريق للدخول إلى المجلس لم أعلم بداية ما الذي يدور بينه وبين زوجي إلى صباح اليوم التالي، فقد عثرت على عبوات ماء معدني تنفث برائحة كريهة عرفت من زوجي فيما بعد أنها عرق، قال:

- صناعة محلية ولكن تمشي الحال، الآن فهمت معنى الشرطة في خدمة الشعب.

ولم يتوقف الملعون عند هذا الحد، بل أصبح يطاردني ويطلب مستحيلاً، في المرة الأولى طلب مقابلتي فقابلته خوفاً منه وتجنباً لسلطته ولم أترك له حرية اقتناصي ومرات لاحقة صار يلح بطلب جسدي فرفضت. هو يعلم جيداً مدى حاجتي لمعدن الرجال ولكي يحرك ما استقر

داخلي أصبح يكلمني في ساعات متأخرة من الليل مثيراً لنزوتي واشتهائي بكلمات متأوهة وعبارات نارية فانبثق جسدي عن عروق تفوح بالشبق. حاولت المرة الأولى السيطرة على أنفاسي وتأوهاتي، وفي المرة التالية انزلقت في دوامة أخذتني إلى خدر لم أفق منه حتى الصباح وفي ليلة اليوم نفسه حضر حاملاً تميمته التي ينعش بها رأس زوجي فلم تمض أكثر من ساعة كنت خلالها أتوجس خطرها حتى راح ينقر الباب الأوسط بنقرات خفيفات فكتمت أنفاسي بادعاء نوم عميق، لكنه أدرك بخبثه أنني أتصنع الخرس قال: افتحي وإلا فستعلمين ما سأفعل.

خفقت بارتعاد وخوف وخيالات من فضيحة ستلحق بي وبزوجي ففتحت له وأنا أتوسل إليه ألا يفعل، أخذني إلى صدره كاتماً أنفاسي المنكسرة حقن فمي بقبلة ساخنة دلقت زيوتها الحامية فوق جسدي فالتهب.

اختلجت عظامي وتحرك لحم جسدي كأرض عطشى اهتزت من مجرد سقوط ذرات المطر الأولى عليها.
قلت: أرجوك ليس هنا.

فحملني بين ذراعيه المتعضلين قائلاً:

- أين؟

أشرت بأطراف أناملي وأنا أشبه ما أكون فوق قارب

مربوط بباخرة كبيرة تلطمها الأمواج وتلعب بها الرياح عصرني فوق الفراش صرت تحته كإسفنجة مبلولة ظل يعصر ماءها. . طفوت معه فوق موجات مكهربة تغذيها سحابات تلد أخرى وكأنه يعالج انفجاراتي بانفجارات تفريغية أخرى حتى تشظت من جسدينا صرخة عظيمة أرخت مفاصلي فلم يبق سوى عيني تسح دموعاً غفيرة بالندم. نهض يستجمع ثيابه، ارتداها بخفة ورحل.

من يومها صرت رهينة محبسين: زوجي المدمن ودحية المدمر الذي دعس شرفي.

سقط رأسها بين ذراعيها منتحبة تشهق بأنفاس حارقة ورطبة، طوقتها بين يدي قائلاً:

- أيتها الحزينة المكتربة المسكينة كم تضورت ألماً وحسرة أنت ضحية هجمة الزمن الغادر المحمول على وجوه أشبه ما تكون بنعوش موتى محنطين. سألتها قائلاً:

- هل عاد دحية النذل لممارسة أسلوبه المستفز معك؟

- حاول أكثر من مرة: لأنه كما تعلم أصبح صديقاً ومنادماً لزوجي، فبعدما اغتيلت العمة أم صنات كان بوده أن أتسنم دورها ظناً منه أنه أحكم سيطرته علي، وتمكن من رأس زوجي.

- هل أخبرك زوجك بشيء؟

زوجي.. كم هو مسكين هذا الزوج الذي أسلم كيانه لزجاجة خمر، فهو لا يفهم الآن سوى هذه الزجاجة التي يزوده بها دحية كل ليلة وإذا غاب عنه فاض علينا بويلاته حتى يسقط إعياء باكياً متباكياً مثل طفل صغير.

- وماذا كنت تفعلين لأجله؟

- كنت أرأف بحاله واتصل بدحية مع كرهي الشديد لهذه اللحظة؛ لأني أعلم نتيجتها سلفاً في كل مرة يتخذها مغنماً ووسيلة يساومني فيها على ما عقد عزمه عليه، لكني في كل مرة أقترب من الهاوية أشد من أزري وأربط جأشي متمسكة بموقفي ورفضي مهما كلفني الأمر، فكم قضيت من ليال جثم الهم والخوف فيها على صدري وهو جاث بانتظار غياب وعي زوجي الكلي ليكرر محاولاته وينال حصته من جسدي. كنت أتخيل وجهه القميء منتصباً أمام عيني فأبصق بصقة تلتصق بالجدار وكأنها تنزلق من عينه الفارغة. قالت:

- أنا ملوثة أحس بالعهر والخطيئة الأبدية. المجرم ساومني على بناتي حاول اجتراح طهرهن.

- ماذا فعلت؟

- كنت منهارة على شفا أبواب الاعتراف. زعقت

في وجهه، قلت له: اذهب إلى الجحيم فلن تمس خصلة من أطراف شعرات بناتي وإن فكرت أو حاولت سأقدم اعترافي لدى قاضي المحكمة وسأكون شاهدة على بلاويك وابتلاءاتك.

- وهو؟

- نكص على عقبه ولم يرني وجهه لأيام، هل تعلم أنه سبب اقتحامي عالم أم صنات السري؟

- كيف؟

- اتصل بي فقط ليدعوني على حفلة. سألته: أي حفلة؟! أخبرني حفلة قريبة من بيتكم وأمرني أن أتجهز لها في المساء.

قلت متوخياً بحدس أشاغبه به:

- والحفلة في بيت أم صنات.

هزت رأسها قائلة:

- نعم في بيت أم صنات ومنذ ذلك الحين وإلى قبيل مقتلها أراه عندها وبحمايتها. لقد عوضتني تلك المرأة الطيبة بأشياء كثيرة.

سألتها:

- مثلاً..؟ أنا أراها شيطاناً في صورة إنسان.

استفزتها جملتي وقالت:

- أرجوك لا تقل عنها ذلك الله يرحمها، أول عمل حسن قدمته لي كفها أذى دحية عني. اكتشفت أنها لا يخفى عنها شيء وأنت تعرف أن أياديها طائلة لذلك يخاف منها دحية وهو بين يديها كحمل وديع تأمره فيطيع.

- وماذا قدمت لك أيضاً؟ سألتها:

- أشياء كثيرة جعلتني إنسانة محترمة وكفتني مؤونة البحث عن شراب لزوجي، كانت تدسه لي في كيس آخذه معي قبل أن أخرج وبالمجان لا تطلب عليه أدنى مقابل.

- أدنى مقابل؟!

- أدنى مقابل. صدقني نراها كلنا كأم رؤوم تخاف علينا وتحوطنا بعنايتها.. أنت لا تقدّر ذلك أولاً، لأنك رجل لا تحس بما نحس به، أحياناً المرأة تبحث عن امرأة أخرى قوية تثق بها تحميها.

- فاجأتني بعبارتها الأخيرة لأنني لم أسأل نفسي قط عن أم صنات هل هي طيبة أو شريرة؟ عدا ما يدور في بيتها.

طوى الليل آخر صفحات الشجن فغالبني وإياها نعاس قلت معتذراً:

- لقد طلع علينا الصباح دون أن نحس، ما رأيك لو أجلنا أحاديثنا إلى الغد؟

كأني بذلك أعفيتها مما لا تريد البوح به، رفعت رأسها وهي تقول:

- إذن انتظر مني اتصالاً غداً.

أنا وأم عزوز

لعبة ثانية

في الليالي التالية كنا نرتشف أنواعاً من الكؤوس... حزن يليه رقص يفضي إلى فرح كنت أمارس صمتي مستمعاً إلى حكاياتها الحزينة مكتفياً بالتعليق بما يشبه المواساة وتتحدث بهذر لا ينتهي، وساعة تمل تضغط على زناد المسجل وتشرع بالرقص متلوية على أنغام وكلمات مسكونة بالحزن، أخرج مشحوناً بطاقة للحياة ودفء للنوم ونزوة للمرأة التي لم تمنحني جسدها بعد، قلت تعزية وقتية:

- ربما هي تهيىء نفسها وتشحذ جسدي للغواية، فكرت أن أمتطي جسدها عنوة بلا مقدمات، خشيت نفورها مخمناً ان الملعون دحية طوى شهوتها وحبها للرجال، حدثتني عن تتمة حكايتها مع الكلب دحية، سألتها عن حقيقة القبض على دحية وتهمته، وقتها كنت غائباً عن الحي إبان زواجي.

أجابتني قائلة:

أنت تذكر المثل المشهور (يجعل سره في أضعف خلقه).

- وما علاقة هذا المثل بالخلاص من دحية إن لم تكوني أنت من تخلص منه؟

- لا . . . لست أنا وكم تمنيت أن تكون نهايته على يدي وأشفي غليل صدري وأطفىء ناري.

- من إذن؟

- تذكر الخادمة الفلبينية التي كانت تعمل عند العمة أم صنات؟

ما شأنها؟ تقصدين. . .

- أقصد أنها هي من تخلص منه وغيبته وراء الشمس.

- بالله كيف؟ لقد زاد شوقي والتهبت أطرافي توقاً لسماع حكاية الملعون.

- أقول لك:

- ماتت العمة وكانت الخادمة على كفالة الملعون فأخذها معه إلى شقته. في البدء كان كل شيء يمر باعتيادية تنفذ كل أوامره بلا تردد أو حدود؛ إلا أن الأمر لم يقف عليه وحده، بل صار يهادي بها كل من يزوره، فلم يحتمل جسدها الهزيل عربدة الأجساد، فلا تكاد تنهض من أزمة اشتهاء حيواني إلا وتسحبها أزمة أخرى، كانت مشروعاً متاحاً لفك أزمات ضيوفه المحترمين.

- لماذا لم تهرب؟

- كان يوصد الأبواب خلفها سواء كان بالداخل أو بالخارج، لقد فوضت أمرها لصمت الجدر وعواء الذئاب وهي تنهش لحمها بلا رحمة وتتركها مثل خرقة ذاوية.

- ألم تستجر بأحد يخلصها؟

- أذكر أنها اتصلت بي ذات مرة وكانت تبكي بكاءً مراً لم أفهم منها ما تقول ثم فجأة أقفل الخط.

- إذن كيف تخلصت منه إذا لم تكوني أنت من ساعدها؟

- الحكاية تفشت في أسماع كل قاطني الحي، الذين ما إن استقرت في آذانهم حتى أطلقوا تنهيدة ساخنة من أعماق صدورهم رشقوها في الهواء وكأنهم يطردون أرواحاً شريرة. تدافعت إثرها بصقات مغموسة بوابل من اللعنات. ليبيتوا يتسامرون بها وكأنهم يلعنون الماضي الذي قذف دحية في طريقهم. ربما اختلفت بعض تفاصيل الحكاية. إلا أن المتفق عليه هو أنها كانت كل صبح كئيب تتسلق إلى النافذة تسمتطر المارة مستغيثة بهم. بعضهم لم يكن يعيرها انتباهاً كافياً لاعتقاده أنها شكاية مثل أي شكاية لخادمة مهملة ومقموعة في عقر البيوت

الصامتة. وبعضهم ينتابه مباشرة خوف من الضابط دحية فلا يعيرها أدنى اهتمام. وفي ذات صباح حباها الله بأحد العمال الفلبينيين العاملين في شركة الاتصالات، كان واقفاً بانهماك يختبر حزمة من شبكة الاتصال المعقدة من الكبينة المقابلة تماماً لنافذة الخادمة المستغيثة. اندلق صوتها بلغة فلبينية صافية سحبت العامل من أعماق انشغاله، ليستدير إليها محدقاً بوجهها العابر بصفرة باهتة من خلال النافذة، طلبت منه النجدة ببكاء مبحوح قاصة عليه حكايتها. فلم يتوان لحظة بالاتصال مباشرة بسفارتهم، فقد تذكر تحذيراتها من مغبة الذهاب إلى الشرطة. وفي زمن قصير قامت السفارة بإبلاغ الجهات الأمنية الذين سارعوا بدورهم لإجراء التحريات اللازمة بهدف القبض عليه متلبساً بالجرم المشهود. وفي ليلة كان يحتفل مع صحبته بالشرب، وتقديم جسدها الطري كصيد جاهز ليقضي كل واحد منها وطره بالتناوب، هاجمتهم الدوريات الأمنية وقبض عليه ومن معه متلبساً، ليقدم إلى العدالة. . كنت اتمنى أن يعدم، حتى اتصل بي بعدها بشهر ليخبرني أنه نقل إلى المنطقة الشمالية ويعدني بزيارة قريبة، منذ ذلك اليوم وقلبي منقبض وخائفة لا أدري ماذا سأفعل؟

أطلقت عبارتها الأخيرة كمن يصادق على حكم نافذ لا محالة ووجهها يزهو بلمعة موشاة بفرح وبهجة، قالت:

- منذئذ غدوت امرأة حرة من تربصات الملعون وليلة القبض عليه كانت ليلة شافية تمادت بي أيامي في راحة وطمأنينة.

غذينا ليالينا باستمراء للأحاديث وهتك أسرار البيوت الغافلة، كانت تبادرني (بمانشيتات) عريضة لأهم الأحداث الطافية على وجه الحارة، ثم تأخذني في جولة تفقدية على تفاصيل الأحداث، متناولة أهمها بالتعليق المقالي الطويل ثم تطلعني على آخر ما وصل إليها من رسائل الجوال الذي امتلكته أخيراً وصرت أغذي بطاقته لها شهرياً كلما نفدت تجنيباً لها عن حاجة السؤال للآخرين.

أعلمتني ذات يوم عن زواج سويلم العدان بثالثة، قلت مندهشاً:

- ألم يشبع هذا الرجال من أجساد البنات الصغيرات!

ضحكت وهي تقول:

- لا . . . قل لم يشبع من الأولاد.

- كم ولداً أصبح لديه؟

- ولد واحد لم يرزق بغيره من صفا كأنها أصيبت بعين أو ربط بسحر ولم يدخر مالاً أو جهداً في علاجها بشتى السبل، ولكن لا فائدة أصبح عمر ولده منها الآن سبع سنوات أما هو فيلج عمره نحو السبعين.

- وماذا بعد السبعين؟

- قل ماذا بعد موته؟ لا يريد أن يورث هذه الأموال سوى أولاده من صلبه.

- وتذكر مواقف أخيه وأبنائه معه.

- وبمن تزوج؟

- أحزر لن أخبرك؟

- وإذا حزرت؟

- لك ما تريد.

- لي ما أريد؟

- لك ما تريد.

أطرقت ملياً أجيل ذهني بين كل نساء الحارة الصغيرات ومتوسطات العمر وحتى الكبيرات منهن والعانسات. قلت:

- غلب حماري أرجوك أخبريني.

- وإذا أخبرتك؟

- اطلبي ما تشائين.

- هل ستفي بما ستعدني به إذا أخبرتك؟

- لك هذا.

- (هيا).

- نعم..؟

صرخت مشدوهاً كأني لم أسمع أو أني أصبت بوقر في أذني.

قالت بصوت عال:

- هيا.. هيا.. هيا.

- هيا.. معشوقة يعقوب؟

- هي بشحمها ولحمها التي ذهبت بعقله.

- يا الله كم أن هذه الدنيا صغيرة، أين أنت يا صاحبي كي تسمع بأذنيك فجيعتك، والله ستكون القاضية له.

ومتى تزوجها؟

- الشهر الماضي وسافرا إلى مكة لأداء مناسك العمرة.

- وماذا عن زوجتيه الأخريين.

- لا شيء.. أسكن كل واحدة في شقة مستقلة.. في

عمارته الجديدة على ناصية الشارع محفولات مكفولات..
تصدق كم أني أحسدهن على مثل هذه الحياة.

قلت سائلاً بتردد:

- وماذا تعرفين عن هيا..

- الكثير.

- مثلاً..؟ يعني اسمعيني شيئاً من هذا الكثير.

وماذا تريد أن تعرف؟

- أهم شيء، أنت سيدة الانتقاء.

علقت:

والبث المباشر.

كرت ضحكة غاشمة.. وهي تقول:

- إذن اسمع.

- زوّجها أبوها من شاب في مثل عمرها مملوءاً بآمال عريضة لمستقبل زاهر بالرغم من رفضها هذا الزواج، فهي كما تعلم كانت متعلقة بصاحبك وظلت كذلك مع الزوج الشاب الذي لم تبادله مشاعر الحب الأولى، أحست بالإهانة لتزويجها من شاب لم تره من قبل كما أحست بالقهر؛ لأنها أرغمت عليه، لذلك لم تخلص له قدر إخلاصه لها وكانت تثقل كاهله بطلبات

فجة وشبه مستحيلة حتى أصبح يأتي براتبه الشهري وينثره بين يديها منتظراً منحتها في مبلغ بسيط تقتطعه له.

- وهل تكتفي بذلك؟ سألتها.

فجاوبتني وهي تهز رأسها من الحسرة والألم.

- لم يكفها ذلك بل تأخذه منه في ساعة وتحرقه في أيام قلائل، تصور أنها ابتاعت يوماً ما أحذية بقيمة ثلاثة آلاف ريال يعني أكثر من ثلاثة أرباع الراتب.

- وبقية الشهر؟

- يأكل هو الحصرم مطوحاً بوجهه بين المقرضين.

استنفد فرصة بطاقاته الائتمانية وقروض سيارات وبنوك؛ ليصبح مطارداً بديون أثقلت كاهله وولى هارباً إلى مكان لا يعلمه أحد.

- وماذا فعلت هي؟

- ببساطة لملمت حاجاتها الثمينة وحملت نفسها إلى بيت أبيها.

- ثم ماذا بعد؟

- لا شيء اختفى الزوج أكثر من سنتين وطلبت هي الطلاق فجاءها على وجه السرعة من مكان لا تعلمه، المهم طلقت وفرحت بذلك.

قالت لي ذات يوم:

أم عزوز لقد نجحت خطتي وطفشته حتى يكون عبرة لغيره.

سألتها والأسى يعاود مروره على سحنة وجهها.

- لماذا إذن من البداية لم تكافح من أجل حبها ما دامت بهذا الجبروت والدهاء؟

- حاولت دون فائدة ولا تزال الحسرة على حبها الأول تعصرها، حينما تتذكر يعقوب... تصدق أنها أرتني صورته التي أخفتها في قلادة على شكل قلب تعلقها دائماً على صدرها!

- آه لو علم يعقوب.

علقت قائلة:

- إذا فات الفوت ما ينفع الصوت.

ولاذت بصمتها المعهود لحظة ما تختم أي حكاية مأساوية.

سألتها مستنهضاً شراهتها للكلام مبدداً هالة الحزن المعششة فوق عينيها الذابلتين:

- وهل أرغمت على سويلم؟

- لا... أبداً وافقت على الفور.

- بهذه السرعة؟

- بهذه السرعة لم يبق لها شيء تراهن عليه كانت مترددة بعض الشيء لكنني أقنعتها بدافع الثروة والرجل الطاعن بالسن الذي لن يمهله الموت وترث منه.. وهذه الحياة لا تمنحنا حياديتها فهي لعبة وخسارة.

- بهذا الكلام أقنعتها؟

- وخطبتها له وقبضت الثمن.

عندما تهم أم عزوز بالصمت؛ فإنها تقدم بين يدي آخر كل جملة تختم بها، كأني سمعتها تحيك عبارة مجانية دخلت فناء حكاياتها عرضاً، وكأني سمعتها تتحدث عن شخص ما كان مألوفاً لدرجة أنه ارتج علي.. سألتها وهي سائرة تهذي في حكاية لم نأت عليها بعد:

- من تقصدين؟

قالت:

- أقصد صاحبك (يعقوب) أمه تقول إنه سجن نفسه في غرفته.

ولم يبرحها منذ أيام. كما حدثتني أمه عن أطواره الغريبة، خفف من ذقنه لا يخرج إلى المسجد كعادته امتنع جزئياً عن الأكل والشرب حتى تغيَّر حاله وذوى جسده.

يعقوب كرة أخرى

معاناة ثالثة

سألت نفسي عن سر هذا الاقتران العجيب بين حكاية (هيا) وعودة يعقوب الغائب. كانت أذناي تنصتان إليها بشغف تبتلعان حكاية أججت تاريخاً مثخناً بالمعاناة، وكأنها تقلب لي بطن الماضي وتشقه أمامي ناثرة كل خيوطه. تحدثت عن الوجه الذي ظل يشبهني حتى وهو غائب، وجه حفرناه وشققنا عنه من أديم الحارة ومن بين أعطاف الناس وأسرارهم.. سكبت كلماتها كرصاص ناري أرهقتني وهي تعتلج هم والدته المسكينة وماذا عساي أن أقول. كم كان بوسعي وأنا أرمق سيارته المنحورة لصق الجدار أن أهوي بيدي كلتيهما على صفحة باب بيتهم الصدىء وأهزّه من عروته؛ لأنتزع هذا الذي تسكنه الوحشة وحيداً في غمرة نسيان زمني مأفون. كم غردت منفرداً بلا حنجرة فلم يكن ثمة صوت سوى فراغ أركله بقدمي المشذبتين من قطع مسافات بلا هوية! هل بات هذا الفراغ هويتي؟ وصار بطاقة مروري لكل مراحل العمر لكي أهوي ككتلة خائرة من جبل طيني، أحياناً

أحس أنني مثل ألسنة لهب مشتعلة بكومة ورق ناشفة.. تخمد سريعاً. هذه الأفكار مخرت عباب رأسي برهة نفشت لها كل عذاباتي، أعرف عدم جدواها الآن... فلا طائل إذن من استحلاب الماضي... ما أرقني أن أقبع تحت ستارة هذا الليل أجتر حكاية مأساة ولا أحيل رأسي إلى طريق يصلني به ربما شفيته.

- أين الهاتف؟ سألت أم عزوز.

- هناك... لماذا؟

أشعلت أصابعي بين أزرار الهاتف ناثراً صوتي عبر شقوق السماعة. ناديته:

- يعقوب.. نفث كل أسئلتي في لحد أنفاسه المتصاعدة، محاولاً تحطيم أغلال معاناة صحت به:

- يعقوب.

بات خانساً يجتر لواعج الهم ثم صرع سماعة الهاتف دون أن ينبس بكلمة أو حتى حرف... تشير أولى تباشير الأمل بعودته بعد غياب، تزيح ستارة الأيام عن مهجته الطافحة بالأذى. تذكرت آخر مرة رأيته فيها. كان هارباً يستجمع نظراته بين أقدامه مشيحاً بوجهه عني ذلك اليوم، كان هارباً، أما اليوم فماذا سيكون؟

هذا الحدث الغريب الذي أيقظته ملاحظة أم عزوز بدأ يطفو أمام عيني مباشرة وأنا أقف أمام ذالك الباب الخرم الحديدي الصدىء تلتصق إلى جواره سيارة يعقوب المختفية معه منذ زمن ليس بالقصير إثر ارتباطه بجماعته المتدينة، والآن تبيت مركونة لصق الحائط لا تتزحزح ليلاً أو نهاراً منذ أكثر من أسبوعين، أثارت أسئلتي كوامن حيرتي، قلت في نفسي:

- الله يستر.

مضى وقت كثير على ملاحظتي الأولى فلم تعد جلجلة العبارات القلقة تسد رمق هذه الأسئلة حتى وجدتني ملتفاً حول السيارة أتفقدها، ومحاولاً تحريك هذا الوجوم الذي طمر باب بيتهم وفي مخيلتي تعود أشياء كثيرة.

- فماذا عساه يا ترى يخبىء هذا الصمت، سألت والدي ذات مرة فأجابني لماماً بقوله:

- لا أدري.

أجريت حسبة سريعة مع نفسي؛ هل أقتحم هذا السكون المهلك وأهزّ الباب بعنف مستغيث، لعله يبرز لي أو أن أصبر بضعة أيام علها تداوي جراحه مسفرة عن شيء جديد؟! أخيراً قررت أن أهز أوصال الباب، فلم يحل المساء بعباءته المغشوشة بأدخنة الرياض ووهج

أنوارها العاتية حتى مثلت متسمراً قبالة الباب أهوي بيدي من كومة أصابعي المقبوضة بلكمات تكشف حيرتي واضطرابي وترددي.

- هل من أحد سوى أمه العجوز المقعدة؟ نعم لا أحد سوى الصمت الذي يفترش عتبات الباب ثم قذفت بفلذة مهجتي المتجمرة إلى ناصية الطريق وقبل أن تلتهمني الأصوات المبعثرة الضاجة عبر أرصفة شارع الخزان اهتزت طبلتا أذني لصوت مبحوح فرزته على عجل هو بالضبط صوت يعقوب، استدرت إليه هابطاً بقدمي نحوه أحاور تقاسيم وجهه الذي يجمع في لحظة أنصاف الأشياء فرأيت أشلاء لحية بدأت تنتشر في أنحاء مختلفة من وجهه الباهت كأنه للحظة تعصف به رياح الخريف فتنهال أوراقه، ألوانها تشي بالموت أكثر من الحياة، جمعته بين أحضاني كلوح محترق. أطلقته متجمداً لم تتسرب من حلقه كلمة. مشيت به وهو يدافع إرادتي بالمكوث معه مدة أطول سألني بصوت يجرب النطق.

- معك سيجارة؟

دسست يدي في جيبي فأسفرت عن بكت (مالبورو) بداخله ولاعة شاغلني بإشعال سيجارة بأطراف مرتبكة، قلت:

- أين تحب أن نمضي؟

عاد إليه سكوته اقتربنا بمحاذاة سيارتي وسحبت مجموعة المفاتيح من طرف الحلقة وفتحت له الباب، قائلاً:

- ما رأيك في جولة على طرقات الرياض؟

استوى داخل السيارة بصمت أشعل سيجارته شفط دخانها بشراهة وانطلقنا، ابتلعتنا زحمة طريق الملك فهد بينما نحن نلج فوهة الصمت المندلع يضرم داخلي أسئلة حبلى بالترقب. كنت أصرف مكائدي في محاولة اصطياد عبارة تغزو تخشبه. أهش بأنف السيارة باجتراء مخيف كل السيارات التي تطوقني، أنفذ منها بمهارة.. فجأة استفرغ كلمة كان يحبسها في حلقه قائلاً: إلى أين نحن ذاهبان؟

أجبته على الفور دون إبطاء:

- لا لشيء إلى أي مكان تحب.

دلق كلمة أخرى صارمة ومتوجسة:

إلى الرمال... مقهى الرمال.

استبسلت السيارة تشق طريقها المزدحم شمالاً لتنعقف شرقاً عبر طريق التخصصي إلى حيث المقهى. تضخمت كتل الدخان داخل قمرة السيارة كمارد يحفنا من كل اتجاه، فضغطت أزرة النوافذ الخلفية لتفريغ صدورنا

مما عاث بها من فساد دخان يعقوب. كان الليل يتهلل ببواكير جلبته على ارتعاشات إنارات الطرق السامقة المتلألئة. . . بينما يعتكف يعقوب في محراب الصمت. كنت قد صففت السيارة في أقرب موقف للسيارات ثم فتحت له الباب، فزع لمباغتتي إياه وكأنه يطرد للتو وهماً جاثماً فوق عينيه، أمسكته من يده مستجدياً قدميه للمشي. أخذنا طريقنا إلى إحدى الغرفات المغلقة بعيداً عن الأصوات والأعين المتربصة. كان منحازاً إلى الصمت ومستتراً بعباءة السكون، قطعت طرفاً من الوقت محاولاً استنطاق لسانه المكبل دون جدوى، فمذ ركب إلى جانبي وهو كالمبهوت، فماذا بوسعي أن أفعل؟! لن أزاول الصمت معه فلسنا في تمرينات (يوجا) تملي علينا طقوسها. شحذت لساني بحفنة عبارات في مجملها عزاء مستعدياً كينونة الإنسان في هذه الدنيا، قلت:

الدنيا لا تستحق عناء الاحتفاء بها، فهي غادرة، لذلك قررت أن أسحقها تحت أقدامي قبل أن تسحقني. . أحسست أن كلماتي تندفع في أوردته مثل حقن عالية التنبيه، ثمة كلمات متراخية تتعاور صوته كمولد كهربائي صغير، فاندفع يحرك لسانه بعبارات حانقة، قال:

- تريد أن تعرف باختصار رحلتي التي بدأناها معاً

في بيت العمة. كنت دلفت وحيداً في معصرة حبي لـ(هيا) من غرست رائحتها في أقصى شعيراتي الدقيقة. . . وغابت فجأة دون أن أسألها من تكون.

خرجت تلك الليلة الحزينة المكتئبة من بيت العمة أجتر خطواتي الراكسة في حيرة وتخبط ضبابي يحيرني هذا الغياب، تنفست برائحة أمواج كانت تتكسر بين أضلعي، أجرجر خطواتي التائهة، أقلب وجهي في حلك ظلمة غاشمة بحثاً عن وجهها. كنت أمام منحدر يومىء للغروب غير مكترث بجذاذات أعين تسفك فضولها الاعتيادي، مشيت بخطوات مبتورة ألتصق بذاكرة محترقة كجرذ صغير يحاذر غائلة تتصيده ببلادة وجمود، أندحر في كوة خبيئة من ذاتي المجروحة. . . اكتشفت ليلتها أن (هيا) سحقت كبريائي وهدمت عظمة الحب الذي روينا عطشه من أغنيات أم كلثوم وتقاطيع فيروز. . . بت أحلق في هباء يتصيدني كلص طريد كاشحاً أضواءه النارية المضطرمة في حلكة الأوقات الزاحفة كأفاع سامة متلهفة لغرس أنيابها بين مفاصل التيه الذي أحسه.

كانت تلك ساعات حسيرة أناشد صوتها المتمدد داخلي أن تحيي تمائمها المحنطة بشفاعة الحب وتوق اللقاء، كي لا تنطفىء قناديل الحب. . كنت أخاتل

نواقيس الحقيقة. حقيقة الغياب وتجردي الروحي من كل خطايا النزوة، فهل ثمة أشعار أخرى للحب الذي بانتظار الغائبين على حدود الألم واستباق العمر؟ كان ذلك المساء يلوح بأطياف شيخوخة مبكرة تتراءى على أعتاب أنفاسي المحروقة.

قبعت أفتل أمشاج خيالاتي في حصار معاند لا تنفك وشائجه وسلاسله العتيدة، كنت أحملق في سمائي فلا أرى سوى غابة من رصاص تطبق على فوهة الكون، هذا الحصار أبدي ليس أهون منه سوى الموت. . الحياة لم تمنحني حيادية البقاء وتسلمني كراساً لواجبات يومية، تمزقت أوصال ظلالي. . بت بلا ظلال تسابقني وبلا خطوات تلاحقني، بلا ذاكرة ترصد معالم الأشياء. . كنت أغيب في متاهة تتشقق من فوهة سفلية تمضغني كلبانة ثم تلفظني إلى هباء. بت أمام مرآة صقيلة تنعكس منها نجوم متاخمة لندف ضباب تلوح كابتسامات حبيبتي. . . أمد يدي المجدبة علّها تمدني بطاقة تنبت روحي من جديد، أو تصعقني بوجهها المسافر بشحنة مغناطيسية للحياة أو تنبشني برائحة الوقت وتمنحني وجه الله الرحيم الغفور، كي أمارس جدليتي الخير والشر. . . الحسنة والسيئة.

كم كانت قاسية؛ لقد آذت نزوتي بين ارتعاشات ظلال شموع يتيمة كنت أشعلها من فحيح صدري مستلة كل عصارتي البشرية.

سألته قائلاً:

- لماذا عذبت روحك هكذا وأنت تعلم أن اجتماعنا كان هامشياً بلا شروط مسبقة أو التزامات سوى قوانين العمة الصارمة للجميع؟

أغمض عينيه مطلقاً آهة متألمة وقال:

ليتني لم أنسق خلف أوهامي. كنت أجرب معابثاً لغة الحب المحرضة على النخشب في محرابه إلى أن تسرب إلى روحي نافثاً فيضه دون وعي مني.. شعرت للوهلة الأولى أن ثمة غيمة تنقلت من عينيها وسكنت عروقي.. كنت أستشعر برودتها المنعشة، غسلتني قبل أن نبدأ فصول الدرس الأولى.. كنت وإياها في انتظار أبدي لكل الثواني والدقائق والساعات، فلم أكن أطيق غيابها عن مقلتي لساعات من نهار، فكيف بها تتبدد بصمت بلا عنوان أو اسم كامل يعرفها.

كان عندما يحجب الليل أعين النهار تتأرجح السماء كلعبة صغيرة فتنكفىء تحتي، ألتصق بها مشعلاً شموعي كما يفعل البوذيون وأتمدد وسطها أرسم من ذيولها وجهاً

لحبيبتي، أتضاءل معها غارقاً في سديم أزلي حيث تغيب.

كان تواريها كافياً لنحر شاب مثلي في مضمار الحب. كنت غافلاً عنه إلى قبيل معرفتها لا أؤمن به.

- لماذا لم تلجأ إلي وتبثني تباريحك؟

- أنتم كنتم غارقون في بحر بينما كنت وهيا نجوب فوق بحور. لم يجذبني الموج ويطويني كصفحة من كتاب إلا ساعة أغرقها الغياب ثم أفقت على حقيقة أنني بدونها لا أجيد العوم والتجديف وليس ثمة وقت لمنازلة المياه الطافية فوقي. كنت قد بلجت عيني في قاع سحيق تمددت فيه محنطاً لا شيء سوى صدى أنفاس تهرول نحوي تحاول اجتذابي من براثن الموت الأخير لأجدني مغموراً بتيك الأنفاس المهرولة. تلتف أنفاسهم على أحجيات عرافين وحدهم شخصوا حالتي وعثروا على علتي ووصفوا دوائي، كان إكسيراً من ينبوع الحب والحياة لم تكن أرواحهم تتوق لأكثر من السلام والحب الإلهي.. عرفت فيما بعد سر اكتسابهم لمسمى يعرفون به وهو (التبليغيون)؛ لأنهم يبلغون المرء سبل السلام ويدلون له حبال النجاة، هؤلاء حملوني على أكف الضراعة والابتهالات.. أحسست أنهم أعادوا لي روحي المفقودة وغسلوني من كل أدراني إلى أن تقاذفتني موجات

الجماعات متنقلاً بين كل الأفكار: سلفيين وإخوانيين وسروريين وقطبيين وجهاديين.. سوقوني كعملة نادرة بين مبادئهم وأفكارهم وعرضوني على وجهائهم وعرابيهم كما تعرض صفائح الحديد الطرية على نار لاهبة فتتشكل بلحظة بلا طرق أو تعدين إلى أن تزحلقت روحي الشفيفة الرطبة في براثن القادة الانتحاريين في سبيل إعادة بناء الحضارة الإسلامية تحت راية الخليفة (أبو عبد الله) هؤلاء استعبدوني حتى صار وجهي رصيفاً في طرقات العابرين بأقدام جرداء لأكتشف في رمق السؤال الأخير أن روحي أكذوبة تسكبها سماء الغيب من كهانات أولئك الرجال.. جردوني من أسلحتي، حكمتي، تجربتي واستدروا عطفي وحلبوا مدامعي، أدموا محاجري وحقنوا روحي بهذيذ أمطار النشوة. كنت أتكسر بين أيديهم كشموع الحانات وقت اغتباطها بعهرها الليلي ومواويل ساحرة. جذبوني إلى جهنم كعوشق قديم وعرضوني على جنات الخلد كرمية من حنجرة مبحوحة متدلية.. لقد لبسوني بعد أن فرغوني من سحري، سلموا عيني وزرعوا أعينهم. صرت لا أرى سوى وميض احتراقات الأجساد وهي تزف إلى الجنة، أعطوني كل شيء جنة ونقوداً وحزاماً ناسفاً.

هكذا نزفت مهجته بقيح معاناته وآلامه صبغ بها لمعة القمر النحاسي ليتدلى من رقبة الكون المنتفخ بالأسرار ككرة نارية.. ويهجع كرة أخرى إلى حزنه متقطراً وحشة وخيفة... وقبيل أن ينتزع جسده من مرتبة السيارة أمسك بذراعي متوسلاً الاحتماء بي من كل شيء حتى من نفسه أن لا أتركه لأفكار الوحدة وتهويمات الماضي وعدته بسرور وحفاوة قائلاً له:

- بمثل حاجتك لي فأنا أيضاً عبرت بتجربة تجعلني أشد مؤازرة لك.

أنا ويعقوب

لعبة ثانية

تحركت أيامنا باندفاع تتلوى على حاجات بشرية لدنة، محاولين استحضار حياة المتعة في بيت أم صنات المأسوف عليها وتقليم أمواج البحر الطاغية، فلا تخلف فينا إلا زبداً تلحسه أشعة الشمس. . نمضي الساعات في صبر وتجلد، مبحلقين في سديم هباء تسكنه خلاصة أحلام كسحر عصور سالفة لم ترو عطشها بعد. أقسم يعقوب أن يعيد خارطة حياته وهو يردد في لحظات الطفش المستعرة داخله باستفزازات متعمدة من أقران الماضي عبارات التحدي والصمود. . أقرضته مجموعة كتب رآها وأعجبته في الفن والفلسفة والفكر. . قرأها في ثلاث ليالٍ قال:

- سأسحق ذاكرتي المعشبة وأحرثها من جديد.

طلب مني كتباً أخرى بعينها، أخبرني أنه دوّنها من قائمة مراجع عثر عليها في قائمة ممنوعات كانت تعمم بين الجماعة ليل نهار، كما تعرض أرواح الفجور على أبواب جهنم مستشعرة أنفاسها الحارقة. كنت أعطيته

رواية (الخيميائي) لباولو كويلو فأعادها لي من الغد مشرق الوجه مبتهج الأسارير، انفرجت من روحه شرفة تطل على شخوص يحملون أزمنتهم ويحددون أمكنتهم، فأخذته من يده إلى مكتبتي الصغيرة المنتقاة بعناية، صافحت عيناه كل الأغلفة وقال مازحاً:

- أرجوك اتركني هنا واذهب وسأمر على مكتبتك لشهر واحد، الزمن طويل.

فرز مجموعة كتب وروايات وضعها جانباً. قال:

- تكفيني هذه لسد رمق يومين فقط ولا تسرح وجهك للعراء وتقض وحدتي إلا ساعة أتصل بك.

في غضون أقل من شهر التهمت عيناه صفحات أهم كتب بهوس جعله يتحدث عن كل كتاب كأنه مؤلفه فاقترحت عليه تأسيس مكتبة خاصة به. أجابني قائلاً:

- كيف؟ هذه الكتب لا أعتقد وجودها في مكتبات البيع في الرياض.

أجبته باختصار يمسح كدر السؤال عن سحنته:

- في البحرين هناك ستعثر على بغيتك.

وهل سيسمح لنا بجلبها؟ برأيك نهربها (سألني).

- لا... لا أقصد ذلك، أحياناً يتغاضون عن الكتب إن لم يكن إلى جانبها زجاجات خمر أو حشيش.

كنت بذلك فتحت له بيت أسرار آخر لا يعدله سوى بيت أم صنات، فانداحت روحه تستمرىء حقائق كانت إلى قبيل قراءته لباولو كويلو غائمة عن عقله.

- قال: تراودني فكرة تكسير الأقفال وتمزيق الأغلال.

فكر ملياً ثم أتبع قائلاً:

هذه رحلة وجودي أنا، سأبدأها من نزوة الاشتهاء، يجب أن تحدث عن نفسها وتعبر عن مكبوتاتها الأزلية، تأخذ من نفسها كمعطى حضاري بنّاء، أعجبتني هذه الخاطرة (معطى حضاري بناء)، عبارة قرأتها عن نزواتنا البشرية. إنها معطى حضاري بناء يجب استثماره وسكبه في قوالب حية منتجة.. هكذا بدأت الفكرة تحرضني لإجراء لا أضمن عواقبه، إذن لا بد قبل امتطاء أعصابي المنهارة أن نمرّن أعيننا على تخطي المسافات المحرمة، ترتسم أمامي كلوحة فنية تجريدية لفنان مبدع تكشف النقاب عن شهوات باذخة ومكبوتة تفرز حالة وصاية وقمع ومطاردة وتطرف. قال:

لندرب أنفسنا على كل شيء حتى الممرات المخيفة والخنادق المظلمة التي تنبعث منها رائحة الشهوة، حيث تعتصر فيها خلاصات الجنس اللزجة.

في أيام تالية جرّد نفسه لتقصي أصوات النساء واختبار استعدادهن لخوض غمار تجربة جديدة. . انبثق صوته الجهور المرتبك ذات ليلة سمومية جاهزة لتسريب العرق من شقوق أجساد قاطني الرياض وقتما ارتادت نبراته المضطربة أذني من جهاز هاتفه النقال الذي يحمل أصوات نساء متواريات خلف أسماء مستعارة تهادت إلي رائحة الشهوة تسكبها سماعة الهاتف يسألني:

- عندك مكان؟

سؤال يكشف عن لحظات وعرة ومجيدة في آن واحد من حياته. تفوح كلماته المتسربة عبر شقوق سماعة الهاتف يكرر السؤال بتوسل طاغٍ:

- ليس هناك وقت، عندك مكان؟

- هاه، نعم، نعم. المكان الوحيد هو وكرنا الليلي تنتابه حالة فرح يتقاطر بأنفاس الحرية والشهوة والعبث والنسيان.

- نعم. . نعم. . تعال أنت لا تريد أكثر من مكان آمن، ولو داخل صفيح زبالة.

تستشري داخله اختلاجات منتصر تصفر بها أنفاسه على جلجلة ضحكة مدوية. قال معلقاً:

- ولو صفيح زبالة؟ كلنا زبالون! الزبال الماهر من يلتقط الأشياء الثمينة كالتي تطوقني بذراعيها الآن.

فجأة يسقط المحمول وتتبدد كل الأشياء إلا صوته الجارف وأطياف ضحكات مختلطة وأبواق سيارات وضجيج.

أنا ويعقوب وآخرون

معاناة ثالثة

ذات ليلة رمضانية كانت مدينة الرياض تحتفي ببواكير صمتها المعهود، تفتل منه حبال الملل والضجر.. كنت وصديقي يعقوب نستنشق رائحة أجسادنا المطمورة بشبق أزلي نكتشف تعاليم المدينة وأسرارها.. اغتسلنا برهقها وأغرقتنا بلغز الحياة وأعبائها. حرثنا طرقات الرياض بسيارته الكامري وتمطينا بين الأسواق والمقاهي المعزولة في شطر الرياض الشمالي حفاظاً على بيئة الرياض نقية. حاولنا تلك الليلة أن نتفنن بتمزيق أستار الصمت الليلي بوحشية فلا ندعها ترتخي بين أعيننا متثائبة بملل مكشوف. بدأنا بتكسير لغة النهار الرتيبة وسحلنا أفواهنا بمجون ونحن نطوف بين أصوات مختلطة تشتعل بأطياف خائفة وحزينة تنثرها أعناق المآذن في أسماعنا.. لم يعد يعقوب يزاول امتهان السكوت والحيرة والتشتت. يممنا صوب الشمال ثم إلى زاوية الرياض الشرقية حيث تتبخر هناك غمامات شهب برائحة المعسل والجراك. منبعثة من مقاهي الثمامة. ألقينا بجسدينا المليلين في ثكنة قصية من

مقهى (الرمال) حيث تناوبنا (الجرسونات) بطلباتنا المعهودة حجرين معسل... (فخفخينا) وبراد شاي منعنع، في لحظة ارتوى المكان فجأة بحالة ذعر مهيب مرتعدة فرائص كل شيء لتشرئب أعناق الخوف من صدور الناس، هنيهات تزلزلت الأرض من تحت أقدامنا ومادت بدوي انفجارات، أسقطت شظايا الدمار والموت بين أعيننا وشحنتها بتيارات أسئلة لا تنتهي. قال لي يعقوب وهو ينفث من منخريه دخان المعسل:

- هذه القيامة قامت... الحمد لله آخر نفس من هذه الحياة هو نفس هذا المعسل.

انتشى ضاحكاً وهو يضغط على زر الريموت كنترول كي يلج بنا إلى قلب الحدث حيث تراءى المشهد كاملاً كانت ألسنة اللهب تضوي بحمرة قانية تعانق كتل السحاب الخاملة. قال المعلق:

انفجارات هزت حي (المحيا) غرب مدينة الرياض.

كان وجه يعقوب بدأ يرسم ملامح مختلفة، بألوان طيف ليتفكك أخيراً وكأنه حلّ من مشنقة، شفط في نفس واحد كل كتل الهواء الفاحم الملبد فوق رأسينا، ثم ألحقها بكتلة أخرى من مبسم المعسل شحنها في صدره بعمق، وهو يهز رأسه طرباً على كركرة زجاجة النرجيلة

ليطلقها من صدره مشكِّلة دوائر تلد أخرى وهو يقول:

- هذه حرب عربية أخرى ضروس تدور رحاها على مقربة من حلوق الناس الملتهبة بالأسئلة والظنون. كدت أن أصبح فارسها المغوار، لولا أن السحر المعقود فكّ باكراً.

تسمر الجميع انتظاراً وترقباً لما سيأتي.. أصبحت الرياض مشغولة بالخبر ها هو يرتمي بين أسماعهم مثل جسد محنط فلم يبعثر وجومهم صور متحركة عن بعد تنقلها شاشات القنوات الفضائية في لحظة تاريخية. قاطنو الرياض وحدهم معنيون بكل ما يحدث، والعالم متفرج أرعن يختزل الحدث وينتقل إلى مشاهد أكثر إغراء وإثارة. جاءنا البيان التالي (وأخيراً) الحقيقة المرة:

أقدمت طغمة متطرفة انتحارية على اقتحام مجمع (المحيا السكني) بأجساد مزنرة على متن سيارات مشركة بمتفجرات شديدة التأثير ألحقت أضراراً جمة بالأرواح والأنفس والممتلكات.

كان الصوت النازح من شطر شاشة تلفاز متاخمة لحجرتنا المكشوفة يندلق لاهثاً بأسئلة مستفزة قائلاً: متى يكف هؤلاء المجانين عن قتل الأبرياء الآمنين؟ وإلى متى تتشهى مفارز العهر الإرهابي عربدتها ومجونها على حساب جمال الخلق وإبداع الخالق؟

شحب وجه المتحدث بلون باهت تكسوه هالة حزن وغضب بينما ظل يعقوب يداعب مبسم المعسل بين شفتيه ويتحسسهما كشفتي عشيقة بينما هو حقيقة كان يكرع من كأس معاناته وقهر أسئلة المتحدث. عذابات سنوات حفرت في روحه أخاديد.

أعاد يعقوب مبسم المعسل إلى شفتيه المتيبستين، ساحباً كتلة دخان أخرى احتبسها في صدره برهة ثم أطلقها مبعثرة من أنفه وفمه مجيلاً بعينيه إلى أقصى ممرات وغرفات المقهى المكشوفة تحتضن صمت أسئلة الزبائن وذعرهم.

تناولت أذناه المرهفتان كل الأصوات المرغية على خلفية الحدث مثل مخبر تحرى كل الأصوات الهامسة والضاجة.. استوقفتنا إجابة جاهزة من خلال بث حي لقناة عربية تسوق الإثارة الجاهزة:

- الإرهابيون نتيجة لتعاليم وممارسات. تناولوا أفكاراً معلبة منتهية الصلاحية، ولكن السؤال من استوردها وسوقّها؟ من أعاد تصنيعها وتعليبها محلياً وقدمها بالجملة لموزعين محليين أتقنوا اللعبة وفتحوا لها (أوكازيونات) وما بقي منها وزع مجاناً لغير القادرين على الشراء. والرابحون هم المتفرجون الآن ما دامت

مكاسبهم ترتع في حسابات بنكية خارجية حتماً سترعاها أياد قذرة.

أرسل يعقوب نظراته كسفاً، ممزوجة بلهيب تنضح به عيناه، خشيت منه وعليه فما تتلظى به مهجته لا تتسع له عبارات أو جمل عابرة رجوته أن نرخي ذؤابة خطواتنا وندس جسدينا الناحلين في بهرجة إضاءات طرق الرياض النارية وهي تشحن طاقتها الليلة من احتراق أجساد أبنائها. ظل متشبثاً ببقايا أنفاس المعسل يراقب الحدث بينما شاشة جواله تضوي بلا توقف. ثمة أرواح متعطشة لسماع صوته الذي يشحن به أجساد النساء... أحسسنا أننا في لحظة وعرة مضعضعين نفسياً وجسدياً، أقدامنا تتشبث بالأرض لا تقوى على الحركة. رجوته أن ينتزع قدميه من تحت جسده الرخو... أحس أن ثمة قطيع نمل يسري في دمه ويتغلغل في مغارات جمجمته، لم تعد روحه تواقة لاقتحام أزقة الرياض بحثاً عن جسد يمتص عرقه ويطفىء حريقه ويحرك شراهة أطرافه للانطلاق.

الأجساد لا تزال تحترق في مجمع المحيا السكني وانتفاضة الرياض الاستثنائية في قمة أوجها:

- إلى أين نذهب؟ سألني وعلق قائلاً:

كل الطرق الآن مدلهمة بخطبها الجلل، لا نريد أن نكون فرائس نقاط التفتيش وازدحام الطرق.

قلت:

لن نبيت هنا، حتماً سنسلك الطرق نفسها ونعبر من خلال هذه النقاط.

- ولكن ليس قبل الساعة الثالثة.

أجابني وقبل أن ينزوي بصمته وهواجسه، قال:

- أين أنت يا أم صنات أيتها العمة الرؤوم. تأكدت أنه لا يزال يتأبط وجه فتاته التي بصمت كل تقاطيعها بين شرايينه ومهرتها في قلبه كان سحرها له ماكناً.

وجه يعقوب المتبلد الشارد تلك الليلة الرمضانية، المتفجرة بالصلاة واحتراق حي المحيا السكني يسرب إلى حلقي حموضة لاسعة.. حملنا أقدامنا ومضينا وهو لا يزال دنف الخاطر تزدحم خيالاته بصور شتى لمطاردات تتورم منها أحشاء الرياض، وتجف الأسئلة في حلقه ككسرة ملحية تستعصي على الذوبان، وفي قلبه خفقة من وجه حبيبته يرسلها مثل عصا عرّاف باتجاه هواء الرياض الناعم في مثل هذا الفصل الشتائي، فلا يأبه لكل ما تجيش به الأرض؛ حتى الفتيات المتلصصات يكفيه منهن مبادلتهن توترات أجسادهن الخافقات باللذة.

أصبح ممزوجاً بشهوة وحب أزلي، مهرولاً في سنا لوعته يتلو شيئاً من أسفاره ومستحضراً بدايات قصائده..

تمنى لو أنه نسج قصيدته الأخيرة من وحيها حتى لو لم يبعثها إلى جلالها مثل قصيدته الأولى التي حاكت له وجه الوطن للمرة الأولى وتعرف على ملامحه من بين شفتيها.. كان يهوى ترديد أغاني فيروز ويذوب في صوتها كشجن أبدي، جهر للمرة الأولى قائلاً:

تصدق أنني أعكف حالياً على استحضار وجه (هيا) في كل ليلة يخامرني فأذوب في تقاسيمه كألحان ناعمة وطرية، أستيقظ معه في الصبح كاليراع.

سألته: ما الفائدة؟

قال: لأني أحس بقبضة الموت تحكم خناقها فوق حلقي.. تتسرب لي رائحته في الليل؛ لذلك وجهها فقط يرمم علاقتي بالحياة. منذ اليوم لن أتصلب بين تلافيف خيوطه ليقف الموت منكسراً أمام وهج الحياة الطاغي، إذا تمكنت من ذلك سأسبح بين يديه بمهارة، ولن أغرق في وحوله، ولن تجرفني تياراته المكهربة. ثم قال: تعرف وقتما تفلت من حبال من يسمون أنفسهم بالمجاهدين تكون قد منحت الآخرين حياة جديدة، وأدركت أن الحب والحياة هما الصياغة النهائية لكلمة وطن التي تعني الحياة والحب معاً.

تحدث بثرثرة مؤلمة شرح فلسفته للحب بقوله:

- وقتما نفهم لغة الحب سنتعلم فن الحياة، وسنقطع تذاكرنا في أجواء آمنة، نعيد ترميم أعصابنا المهترئة ونستلهم أرواحنا من تعويذة ساحر كي نمر من بين الخطوط الحمراء العارية، ونستقر في أماكن متقدمة بين كل الأرقام الكبيرة، ثم لا مانع أن نستجمع آخر كسرة ملح تلوكها حلوقنا، فنبصق بها على آخر كابوس ترويه ليالينا الدنفة، وأي معاناة أخرى بعدها كآلام جرح يفرز قيحه الأخير، كي يندمل!

- قال أيضاً وهو يجتر آهة كصوت ربابة:

- التحمت بمواكب (المتدينين) بحثاً عن الحياة والحب كانوا يحملون نطفته لكنه تخلق مشوهاً وخرج إلى الدنيا أشلاءً!

- هل لا زلت تبحث عن الحب أم كفرت به؟ اجتاحني بنظرة حارقة قائلاً:

- الحياة بلا غرام غرامة أبدية نسفك فيها أعمارنا بالمجان وتصبح حتى في أبسط ممارسة الراشد بلاهة وزيفاً. الحب هو عفوية حركة الكون وإلا أصبح وجودنا داخله بلا مبرر، وإنسانيتنا بلهاء لا تعبر عن نفسها ولا تحسن الفهم؛ فبدونه نصبح دمى تتحرك (بزنبرك) وتصبح لغة الموت واحدة بلا بطولات أو أمجاد، والحب هو

المجد والبطولة والبقاء، وبدونه لن نقف أمام جحافل الموت التي تغزونا عنوة وتتفنن في تعذيبنا ولأصبح للموت رائحة نفاذة نستسلم لها وتتسلل بحفاوة إلى أرواحنا حتى تغرقها فينطبع على أديمها لغة بصياغة جديدة لمفهوم الحياة... أي الحياة بالموت!!

يضحك.. أدركت أنه يوشك على الهذيان الذي يعقبه الجنون، ولكي يزيح أول حجر من فوهة البركان المعتمل داخله سألته:

- هل تحذر الموت؟

نطق كلماته بصياغة مركبة لسؤال يصطخب قال:

- كيف لا أحذر الموت الذي كنت ألبس قميصه الناسف مع إشراقة كل صبح، أتصفح وجوه ضحاياي كقائد مغوار بين يديه سلاسل قوية يقتادهم بها إلى الجنة. ثم يطرق ملياً ويردد (عجبت لأناس يقادون إلى الجنة بسلاسل) وتتراشق بين فكيه قهقهات تعصر بطنه فيتلوى منها... وعندما التقط جبة الحكيم المتهاوية جراء ضحكة قال:

- إن لم يفق الأحياء الأموات قاطنو مغارة عالمنا المسكون بالآلام ويقاوموا خطوات الموت والقتل القادمة على أجساد مزنرة فستطغى رائحة الموت من أولئك الذين

يدفعهم طفرهم إلى ساحات الجهاد المزعومة ويفجرون الأرض من تحت أجسادهم.. هم لا يتشفون بالموت وحسب، بل يقتاتون من دماء الأبرياء ويقدمون أرواحهم المسكونة بالوحشة؛ بحثاً عن حب أزلي مفقود، يغسلونها من أدرانها في يوم خلاص مشهود تفتح لهم فيه أبواب الجنان حيث لا سلطان سوى سلطان الله العادل، أولئك القتلة يتقدمون ضحاياهم بترتيل تعاويذ.

أدرك أنه يجوس بلسانه كلمات توقظ داخله رائحة الخوف النفاذة.

حاول بخطة بهلوانية أن يجتذب أطراف الكلمات كي لا تسقط منه سهواً فيجد نفسه محمولاً على ذمة الجنون، فيهرول داخل مضمار مشحون بعبارات الندب والعزاء يلملم قهره، مخلفاً أرضاً درستها أقدامه فلم تعن له الحياة سوى الصمم والخرس الراقصين على إيقاع لقمة العيش، فتوسوس له نفسه بأن يبصق على آثارها، ويلعنها لكنه تعلم أن يكبح جماح الشيطان ويقمع وساوسه.

أنا ويعقوب وأم عزوز كرة أخرى

معاناة ثالثة

في اللحظات الناضحة بالحسرة والألم، تنمو ذاكرتي بفصول أخرى قاتمة، وتكشف عن وجه مدينتي المختلط بعرق الناس وتأوهاتهم ودمائهم. أدركت أن الوقت كمهر جامح، يهرول في مضمار قصير جداً. حاولت أن أهشّ بأقدامي ظلالاً تلاحقني، هارباً من صديقي المتدفق من عروق معطوبة كأنابيب نفط متفجرة بنيران تلسع ندف السحاب الأبيض، وتقض وداعته وسكونه مكوناً رغوة ضبابية سوداء حالكة لا تبدّده الرياح بقدر ما تدسه في أنوف البشر وقلوبهم، وتلوث الماء، وتقضي على كل مشهد جميل لحياة إنسانية وفطرية جميلة مبدعة. لحظتئذ كانت (تكات) عقارب الساعة كفئران تقضم حبالاً بالية، طلبت منه أن يلوي عنق السيارة صوب منزلي القابع في زقاق صغير متفرع من شارع الخزان بسحنته الكئيبة كما عهدته منذ اشرأب عنقي مندلقاً من الباب الحديدي المخرم الصدىء، صفقته خلفي هارباً من الخوف والمقت المعتملين كنار مضطرمة في روع يعقوب. أيقظ صرير

الباب كل القطط الملتئمة على فرائها فوق أسقف السيارات الباردة، وكانت اللحظة هي نجوتي وأملي الوحيد في إعادة برمجة ذاكرتي وجريت بما تتسع له قدماي لتواري ما كشفت عنه سحنته في ليلة مكتنزة بالإرهاب والوجع والأسى واليأس.. لم يفلتني حتى صب وابل رهقه وكمده في عروقي المتجمرة ومضى متسرباً بسيارته بين انفراجات الأزقة، حيث كان يقطن قريباً من حينا.. لم يبرح يعقوب يذكرني بحجوزات الرحلة القادمة. بت وإياه نديمين للسهر ولليل نقتطع من أيامنا الصيفية شهراً نطوف به بين المدائن العربية ننثر ما خصصناه من رواتب سنة كاملة بين الفنادق والمسارح وصالات السينما وسهرات ليلية. كنا قد آلينا على أنفسنا أن نظل عازبين، فالزواج لمجرد الزواج نوع من عهر الأجساد وعربدة الشهوة نقطفها دون جلبة ستغيبنا حتماً في جبّ المسؤوليات وحب امتلاك الزوجة لأوقات الزوج.. هكذا طمرنا كل بادرة لفكرة الزواج، فلم يعد ليعقوب في هذه الدنيا سوى والدته التي يرعاها ولم يبق لي سوى والدي... وغرفات البيت الصغير، أما بقية الناس من بلدي فقد تهالكوا وتخطفتهم مغريات الأحياء الفارهة الفسيحة انتقلوا محملين بديون بنكية مع الأزواج

والأبناء، بينما لا تزال علامات الأيام الغابرة تهمس لي بلغتها الحزينة المسكونة بالأسئلة كان أنكاها:

- لماذا أنت هنا؟

لم تكن تواتيني الجرأة الكافية لإخباره عن سبب تغيبي عنه بعض الليالي، بالرغم من شدة حاجته لي.. كل ينصرف إلى خلوته الملعونة فينهبه الهم وتعلكه ذاكرته المعشبة بالألم.

في كل ليلة كنت أختفي في وكر أم عزوز ينتابني شعور بالذنب وأنا أرى إضاءة محمولي واهتزازاته المتوالية بإصرار. كنت بمثابة محرابه الذي يعصر فيه مهجته المشحونة بالعذابات، فليس لدي من أعذار تهمد أفكاره الظنينة حتى حيلة إخراس الجهاز وجدتها غير مجدية، بل ستبدو له مثل صفعة عنيفة تركسه في أحضان همومه السوداوية القاتلة، فماذا يمكن أن أفعل؟! سألت أم عزوز علها توافيني بحل سريع ناجع لترسل عبارة فطرية بلسمت ترددي ماسحة عن قلبي ذنوبه. قالت:

- لم لا تدعوه؟

- وهل يسرك ذلك وليس من حرج؟

- ليس من حرج.

- لكني لم أخبره عن سر غيابي عنه.

- وماذا في ذلك؟ لتكن مفاجأة:

- دون مقدمات؟

- أحسن.

التقطت المحمول مباشرة وفتحت خط المتصل القادم وكان يعقوب وقبل أن يأخذني بعتابه ولومه الطويل طلبت منه أن يأتي إلي واصفاً له مكاني. قلت:

- سأترك لك الباب موارباً وثمة من ستكون لدى الباب بانتظارك وحالما تصل أعطني إشارة من محمولك.

مضت الدقائق سريعة معدودة ليضيء المحمول فخرجت أم عزوز إليه تستقبله، بينما جلست منتظراً دهشته المتعلقة بوجهه، فقدم تسابقه المضيفة مشيرة له بطرف سبابتها التزام الهدوء في المشي. وكما كان يعقوب تلميذاً نجيباً مطيعاً للأوامر، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بالمتعة، المسروقة من هامش المجتمع المسكون بالحيلة والشكوك والمواربة، امتثل لأمر سيدة الدار، دون أدنى جلبة طفيفة تحرك السكون المسائي. جلس إلى جانبي حائر البال مشتت الذهن مضطرب العين مشغولاً بزحام الأسئلة المكتظة في دماغه، ولكي أقرب له المسافة وأختصر عليه الطرق المؤدية إلى النتيجة قلت:

لعلك تبينت تقاسيم هذا الوجه؟ مشيراً إلى أم عزوز.

هزّ رأسه بإيماءة خفيفة زاماً شفتيه. . . هذه من كنا نعرفها بأم عزوز هي ذاتها أم هند جارتنا في الحي.

- وعزوز:

إضافة فنية وخدعة لذيذة.

- هذه العباءة والغطاء أكبر خدعة تاريخية.

استفزت روحها عبارته وضحكت قائلة:

- لكنها خدعة لا نستغني عنها فنحن ضد السفور والاختلاط.

قال:

- يعني ضد الكشف.

قلت وأنا أغمز لأم عزوز:

لا ضد الفضائح (المتلتلة) هي حيلة اجتماعية لطيفة لولاها لم تكن في ضيافة أم عزوز.

تمتم بصوت لا أكاد أسمعه قائلاً:

- يا لنا من أغبياء.

- قلت بدعابة تفشي حالة الطمأنينة وتكسر حدة المشهد:

- إذن لنكن مع الأذكياء المنفتحين فلا تفسد علينا ليلتنا.

قال وهو يعلق عيناه في تبرج أم عزوز وملابسها الملتصقة بجسدها كحورية.

- تعرف؟ مجتمعنا هذا ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب.

لكزته من يده منبهاً إياه أننا في حضرة السيدة، وقلت:

- لا تترك للدهشة والانبهار أن تفترسك لعلك تهذي، لاحظ أننا في عذاب جميل (مشيراً إلى أم عزوز):

بلج يعقوب عينيه الذابلتين مثل بتلات الياسمين وكأنه يفيق للتو من كابوس يتشبث برأسه.. ازدهرت بين شفتيه ابتسامة عريضة محاولاً ترميم جسده بفرحة ذات لون ونكهة مختلفة. قال مداعباً أم عزوز:

- لم ترقصي كعادتك.

لهذه الليلة فقط نحتفل بعودتك بالرقص والغناء نهضت متجهة إلى قاعدة رف مستطيل يتوسطه ستيريو كبير ترقد على جانبين موازيين من الأرض سماعتان كبيرتان سحبت مجموعة أقراص مدمجة تفحصتها جيداً بينما أخذتنا بعض الأحاديث الجانبية، إلى أن عثرت بينها على بغيتها، وضعته في لسان الجهاز الذي اندلق فجأة لتبدأ

دوزنات عود ناعمة، بينما هي تتأهب للرقص مرخية ذؤابات شعرها منتشراً على كتفيها العاريتين ساتراً بأطرافه المموجة (بالميش) ظهرها وشيئاً من أوراكها، فتشرع باهتزاز جسدها على إيقاعات كلمات راقصة انبعثت من حنجرة راشد الماجد:

يا شوق روحي وقلبي وقطعة مني
عتباك ألطف من النسمة على فؤادي
ما يجرح القلب إلا غيبتك عني
وإلا غيابك يشابه طبعك العادي
أنا اهتني يوم أشوفك انت متهني
وأشوف نور الهنا في طلتك بادي
ما يختلف فيك ظني يا حسن ظني
دايم وفي معي يا وردة بلادي.

ظلت تمازج بجسدها الطروب تماوج إيقاعات الأغنية بغنج وسكر أفقدها الإحساس بالمكان والزمان حتى والباب يطرق والهاتف يرن والمحمول يضوي لم يثنها عن مواصلة الرقص إلى نهاية الأغنية لتعود إليها أنفاسها الذابلة وفيض معاناة عصرته من وجهها.

جلست تنشف عرقها المتصبب من وجهها متنبهة إلى

طرقات عنيفة على الباب فزعت إليها دون أن تستر جسدها شبه العاري مندفعة إلى الطارق متوارية عن أنظارنا فيما بتنا مذعورين خائفين متحسبين لمصيبة ربما حلت ببناتها أو زوجها، لم تلبث أن عادت مرتدية ملابسها وعباءتها وهي تقول:

- زوجي أغمى عليه كعادته سأحمله والبنات إلى أقرب مستوصف. قلت:

- هل أقلكم إلى المستوصف؟

قالت:

- لا . . . لا أريد لفت انتباه البنات بعدما نخرج ببرهة انسحبا بهدوء وقبل أن تدلفا إلى الطريق تأكدا جيداً من خلوه من المارة لسنا بحاجة إلى فضايح الله يخليكم.

- أخرجت من جيبي رزمة نقود ودسستها في حقيبتها الصغيرة.

كانت عقارب الساعة تزف ساعتها الثالثة صباحاً. خرجنا غير مرتويين من ليلة لم تنصفنا . . تساءلنا أين نذهب؟ فلن نبقى معلقين بحبال الليل الذائبة. قلت:

- هل تعشيت؟

أجابني يعقوب على الفور:

- حقيقة، هذه الليلة أحس بجوع العالمين أريد أن أتلذذ بوجبة شهية.

للمرة الأولى منذ أن ركن سيارته لصق الحائط اشتاق إليها بالرغم من الغبرة العالقة.

ولكنه - قال:

- ليس قبل أن نكنس أكوام النفايات منها... تحتاج إلى ترميم هيئة داخلية. استل كيساً من مقعد السيارة الخلفي وصار يحشو داخله أوراقاً وأشرطة كاسيت وكتيبات وكتباً ومجلات غصّ بها الكيس حمله وأفرغه في الحاوية وعاد كرة أخرى يلتقط ما بقي منها ثم سألني:

- هل معك شريط أغان؟

قلت:

- لا نحتاج... الراديو شغال عندك.

هز رأسه وكأنه يفيق للتو من رحلته الوجدانية ثمة أشياء كثيرة تغيرت في غيابه.

قلت:

- الـ Mbc fm والبانوراما تكفيان.

اهتزت عضلات وجهه كحالة انتصار، فامتطينا السيارة الجاثمة منذ أسابيع بعدما شحناها بالوقود باتجاه شمال الرياض نجوب الطرقات النائمة أفزعنا صدورنا

بحكايات نصف ميتة بدأناها بأم عزوز منتقلين إلى أم صنات ودحية وحبيبته هيا وعن الشباب المعسكرين في خندق البطولات الذين تعرَّف عليهم فيما بعد.

في مساء اليوم التالي من أيام الصيف حيث شرع الناس ينفضون حالة الملل وإعياء النهار المضرج بشمس حارقة عن كواهلهم، اتصل بي يعقوب.. كانت تداعب كلماته وهو يحادثني من سماعة الهاتف أريحية غير مألوفة تقترب من حالة الرضا. قال:

أريدك أن تتجهز للخروج.

نظرت إلى الساعة وكانت تشير إلى الثامنة قلت:

- في مثل هذا الوقت؟

- نعم وما المانع؟

- لا.. فقط أردت احتساء قهوتي المسائية المعتادة.

- لا تحتاجها سأعزمك في المكان الذي تحدده. سأسمعك شيئاً من وحي الحبيبة.

- لك ما تريد.

في الوقت الذي حدّده كنت أنتظره على ناصية الشارع الرئيسي. توقف إلى جانب السيارة المحاذية للرصيف فما كدت أتبينه لولا نداؤه المندفع من نافذة السيارة الجانبية، أحنيت رأسي متفحصاً وجهه، كان

هادئاً وطبيعياً بخلاف الأمس قصّ شعره الناعم وأسدله إلى جانبيه وحلق ذقنه وحف شاربه فبدت نضارة الشباب تلمع من بقايا شحوب وعلامات الهزال. ركبت إلى جانبه فأكتشفت أنه قضى يوماً مرتعشاً باحتفالية انقلابية غير مسبوقة.. رائحة عطر ناعم هادىء تتسلل إلى الأنف برخاوة مدوخة. حتى سيارته بدت تبرق بانعكاس الأضواء ومراتبها المكسوة بالجلد الناعم. قلت:

- تصدقني إذا اعترفت لك أنني لم أعرفك.

اشتعل وجهه بابتسامة وقال:

- حتى أنا لم أعرف نفسي إلا من صوتي الذي كدت أن أمقته إلى الأبد.

- والآن؟

- أحببته فقط منذ البارحة ألفيته مسالماً كأني ولدت به من جديد وتغيّرت حياتي فجأة، حالة انعطاف.. مشاعر كنت أخالها ماتت إلى الساعة التي رأيت فيها أم عزوز هي التي نبشت عذرية روحي واستلت منها وجه (هيا) قد لا تصدقني إذا أعلمتك أنني كتبت قصيدة.

قلت:

- لقد أبهجني حقاً ما أسمعه منك، هو المرحلة الأولى والصادقة للبوح باتجاه خلاق.

دلفنا إلى مقهى (العربة) في شارع التحلية كان الوقت باكراً نسبياً يعج بالأصوات ووقع الأقدام استأثرنا بمكان يشبه زاوية وجلسنا ولم يكف عن الحديث عن تفاصيل يومية وكأنه يقرأ من مذكرات دونت سلفاً تخلو من الارتجال، ثم استل ورقة طرقت بعناية قائلاً:

- اسمع قصيدتي الأولى أو محاولتي الأولى:

قلت: أسمع.

بدأ يتلو بصوت مسكون بالمعاناة. كان يقرأ ثم يملأ رئتيه بهواء ساخن ليطلقه مع كل سطر ممزوجاً بالأسى والحنين وعيناه شاردتان تستوحيان أسرار الصمت المقطب في فضاء الرياض الليلي.. ما كاد ينتهي حتى طوى فجيعته داخل ورقته البيضاء؛ حافراً لها خندقاً في صدره المتورم بأحرف لا تزال تبللها أنفاسه الماطرة. صفقت له بإعجاب أحدث ضجة استنفرت كل الرقاب الملتوية على صدى التصفيق. قلت:

- سأطلب منك شيئاً وأخشى أن تردني.

قال:

- لن أرد طلبك خائباً.

- القصيدة؟

- ما شأنها؟

- أريدها.

- هذا فقط؟

- هذا فقط.

سحب أطراف الورقة من جيبه ودفعها إليَّ قائلاً:

- لن أحقق معك حول مصيرها.

كنا قد مشينا متخطين رصيف المقهى وركبنا السيارة منطلقين عبر طرق الرياض المستعرة بالإضاءات الصفراء الفاقعة، بما يبعث على الإحساس بالفوضى الرتيبة. استقبلت مكالمة من أم عزوز تطمئنني فيها على زوجها وتعتذر عن كل الأيام القادمة لانشغالها بالبقاء إلى جانبه، فقد حذره الأطباء من الشرب؛ لأن أي جرعة إضافية ستكون القاضية؛ فكبده لم تعد تقوى على تحمل المزيد.

أغلقت الخط مرسلة تحياتها مشفوعة باعتذار ليعقوب الذي شرع في مزاولة الصمت فخشيت عليه من حالة نكوص، خصوصاً بعد ما شرخت كلمات قصيدته حلقه المختزل بأصوات العالم من حب ومقت وقرف وثورة واستعداء وخبث وطيبة ونجاسة وطهارة.

اكتشف يعقوب تلك الليلة أنه لم يعد يلبس ذاكرة صوته ومشاكله، بل شاغلتها بذور إبداع تشف عن كل ما

تلتهمه عيناه وتعصرانه من أحرف وكلمات صرح لي قائلاً:

خلال حياتي البرزخية التي قضيتها في منزلي حاولت أن أغسل ذاكرتي بالقراءة، فكانت عدتي منها المعاول ومنها المقشات ذات الأسنان الغليظة، كانت كتبك مثل بياض الطحين ورغوة الصابون وحرارة ألسنة اللهب، ولم أعد أعبأ بالزمن الذي أتقصد نسيانه. لقد عاشرت هذه الكتب مثل زوجات حنونات قبلتهن وضاجعتهن وشربت عصارتهن.. وهن من شكّل نزوتي المكبوتة وأحالها إلى نزوة مكتوبة.

وقبل أن يتركني لسديم الوحدة ذكرني بأبيات لصلاح عبد الصبور:

الناس في بلادي جارحون كالصقور
غناؤهم كرجعة في ذؤابة الشجر
وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب
خطاهمو تريد أن تسوخ في التراب
ويقتلون، يسرقون، يشربون، يجأشون
لكنهم بشر
وطيبون حين يملكون قبضتي نقود
ومؤمنون بالقدر.

ثم سألني بوجه مكترب قائلاً:

- هل هم طيبون؟

قلت وأنا أحكم غلق باب سيارته:

- هم مساكين.

سر يعقوب وآخرين

لعبة أولى

في أيام تالية تقاسمنا فيها عشبة الوقت ورغيف الأحلام التي نهضت في روعه تواكبها طموحات كبيرة، كانت تبدو لي ضرباً من العزاء إلى أن استبدل سيارته بسيارة أخرى جيدة أدهشتني بقدر ما حيرتني، فكيف اقتناها وهو معدم بلا عمل أو مصدر معلوم حتى المبلغ الشهري الذي يقبضه من إخوته كعائد من عقار موروث ومؤجر لا يكاد يسد ضروريات حياته، وقبل أن تباغتني الشكوك سألني قائلاً:

- ربما أنت تسأل نفسك الآن عن سر هذه السيارة وسأخبرك بصدق، وأرجوك أن تكتم كل ما سأخبرك به. تجعله في حرزه الأمين كمثل كل أسرارنا الأبدية.

- اتفقنا.

قلت:

- إن لم تكن واثقاً مني تماماً فأنت في حلٍّ من أمرك وأرجوك أعفني من مسؤولية أنت تراها عظيمة.

- لا . . لا تفهمني غلط ما أرمي إليه هو خطورة ما سأبوح به ولا أشك في صداقتك لي لحظة واحدة بكل ما

تضمره قلوبنا من أسرار عميقة وخطيرة، على العموم استمع :

في اللحظات الحاسمة من اتخاذ قراري بهجر الجماعة اتصل بي أحدهم (لا أعرفه) عرف نفسه تحت اسم حركي وطلب مني البروز له في مكان حدّده هو لأمر عاجل، ونفذت طلبه على الفور ولأن الوجوه دائماً متشابهة لم أتفحص أو أمعن النظر، أعطاني حقيبة وطلب مني تسليمها (للمظفر) أحد الأسماء الحركية المعروفة وهو من حاول تجنيدي في كتيبة جهادية قوامها عشرة أشخاص.

حملت الحقيبة وخبأتها في منزلنا الذي لم أكن آتي إليه إلا ساعة من كل أسبوع للاطمئنان على والدتي وأرحل مخافة اكتشافه.

سألته :

- أو لم يكن يعلم هؤلاء موقع المنزل؟

أجابني قائلاً :

- لعلك تقصد هؤلاء الشباب الذين التحقت بهم منذ البداية؟! هؤلاء لم يكونوا نظراء لأولئك؛ لأنهم كانوا عاديين وطيبين جداً ويكرهون العنف وهم معلقون بالأعمال الصالحة الموصلة إلى دار النعيم يسمون أنفسهم (التبليغيون) وقد حذروني لأكثر من مرة من مغبة الالتصاق

ببعض المشبوهين، ولأني كنت مسلوباً انجذبت دون دراية وتمحيص، حيث تزحلقت قدمي بدوامتهم وحبالهم الطويلة.. لقد حقنوني بأفكار شحنت عروقي بالهمة وروحي بالعداء، وكانوا يستهدفون إقامة خلافة الله على أرضه فلبستني هذه الأفكار إلى أن أصبحت في حرزهم وتحت إرادتهم والباقي أنت تعلمه.

- وماذا بعد؟

حالما عدت وسكنت روحي سحبت الحقيبة من مخبئها وقمت بتكسير أقفالها، فما أن فتحتها حتى صافحت عيني ألواناً خضراء وزرقاء ناصعة براقة من رزم أوراق بنكنوتية من فئة المئة دولار والخمسمائة ريال. صدقني لم أستطع عدّها ولكنها تنيف على المليون ريال.

- هل أودعتها في البنك؟

- أنا لست مغفلاً.

- وماذا عملت بها إذن؟

الشيء الأهم الذي تعلمته من الجماعة هو (السرية التامة وهذه النقود أكبر فضيحة؛ لذلك وزعتها على بعض صناديق الاستثمار الرابحة والأسهم وما بقي منها ابتعت به هذه السيارة ومعي ثلاثون ألف ريال مصاريف وبذلك أحصّن نفسي من الشكوك والمساءلات المريبة.

ثم وجه لي سؤالاً بصوت خفيت:

- هل تحتاج منها شيئاً؟

قلت على الفور:

- أنا.. لا، ولكني سأقترض منك مبلغاً لن يدخل حسابي.

- لمن؟

- لأم عزوز اتصلت بي البارحة تلتمس مبلغاً من المال.

- كم طلبت؟

أظنها قالت ثلاثة آلاف ريال.

سأعطيها خمسة بنفسي اتصل بها الآن.

اعتقدت للوهلة الأولى أنها مساومة رخيصة؛ بيد أنه عاجلني بعبارة أنقذتني من الهواجس الملعونة:

- لا تظن بي السوء، ولكني أعرف ظروفها وأقدِّرها، اتصل بها الآن.

التقطت المحمول وهاتفتها، كان صوتها ينثال بحرارة وسؤال فاحش يكشف عن حاجتها الماسة للمال. قلت قبل أن تسألي:

- خذي هذا يعقوب يريدك في أمر ما.

استلم يعقوب المحمول مختصراً مقدمات السلام والتحية قائلاً:

ماذا لديك الليلة... إذن لنا لقاء.

أحنى يعقوب رأسه يهامسني قائلاً:

- كم هي طيبة هذه المرأة، ولكن الظروف سيئة وخبيثة هذه التي سمحت باستغلالها.

كانت الخمسة آلاف ريال مفتاح أسرار أم عزوز المتربسة. سحرتها الأوراق ذات الألوان الزرقاء الصقيلة لتنهال بقبلة ساخنة طبعتها على خد يعقوب من شفتين محددتين بقلم روج أحمر: العليا منهما تكتنز باشتهاء عارم وقالت:

- سأرقص لك اليوم بفرح.

قلت:

- لا أقبل أن تغرقي بطيف الألحان سأسمعك قصيدة، هل تحبين الشعر؟

- الشعر أحفظ منه الكثير خصوصاً المغنى.

- لا أقصد الشعر العربي، اسمعي حتى لا نهدر الوقت بتفاصيل شرح يطول.

وضعت الورقة ممدة أمام عيني وقرأت مستحضراً أصوات يعقوب وحزنه.

بينما هي تخلل أناملها بين خصلات شعرها متكئة برأسها على راحتها تستمع.

أنهيت قراءتي ولم تفق من غيبوبتها.

قلت:

- هاه ما رأيك؟

انتبهت وهي تردد:

- جميلة لم أفهم منها سوى حب وحزن وفراق، لكنها حقاً جميلة وأعجبتني.. من كتبها يا ترى أنت؟

غمزت ليعقوب بطرف عيني، فانتبهت مكررة سؤالها:

- أنت يا يعقوب؟

- أخجله سؤالها فلاذ بصمت.

- أنت يا يعقوب يخرج منك هذا الشعر، لا زلت تذكرها؟

أحرجه سؤالها.

- لا... من تقصدين؟

- هيا.

- هيا... نطق اسمها بارتجاف ظاهر.

قالت بابتسامة تداعب بها شفتيها متذوقة حلاوة الاستكشاف.

- لا عليك، المحب لا ينسى وهي كذلك لم تنسك

صعقته عبارتها، فماذا عساها تقصد. . سكبت في أذنه عبارة مثل شفرة سرية.

هي لم تنسك أبداً ولا تزال متعلقة بكل الذكريات الماضية، كأنه لم يخلق إنسان على وجه الكون سواك.

- وما أدراك؟

- أراها.

- ترينها. . . ؟!

- نعم تزورني بعض أيام الأسبوع.

تزورك؟! ما أعرفه أنها تزوجت ورحلت إلى أرض بعيدة.

- سأخبرك بشرط ألا تتهور، فهي متزوجة ولديها أولاد.

هذا خبر صاعق مثل كارثة، قال باستنكار:

- متزوجة؟! متى وكيف وبمن؟

- لن أخبرك حتى تعاهدني على ضبط تصرفاتك، ولا تؤذيها أو تخرب عليها عشها.

- أنا لا أخرب أنا أبني لها عشاً ومع ذلك لك ما تريدين. . هيا أخبريني فأنا في غاية الشوق لسماع حكايتها.

- لا من فضلك، يعقوب، اهدأ.

سحبت سيجارة من علبة سجائر كانت فوق طاولة بقربها... أشعلتها وهي تقول:

- عشها بناه لها زوجها وهي سعيدة به.

- ولكنها تحبني، أنت بنفسك تشهدين على ذلك.

- لا نختلف.. تحبك مثل أكثر النساء اللاتي مررن بقصص حب عارمة ووشمت أرواحهن وذاكرتهن بها حتى وهن متزوجات وسعيدات بحالة الاستقرار، فالسعادة هنا نسبية، أشياء نحبها وتؤرقنا وقد تعذبنا، وأشياء أخرى لا نحبها ولا نكرهها ونظل سعيدين بها، هل فهمتني؟

- أنا مثلاً أحببت ولا أزال أحب حبيبي وأتتبع أخباره، كلما سمعت عنه حكاية يهتز بدني وتتحرك مشاعري وتهفو روحي للقائه ولكن...

- ولكن ماذا؟ أنت لم تتقلبي في كنف العذاب لم تحتسي يوماً فنجان الفراق والوجد، لم تكوني منفية مطاردة من الداخل، لم تتصيدك الشكوك وتزعزعك الهموم وتصيبك بجراح غائرة لا تندمل.. لقد خذلني حب هيا، حتى غرت في أسفل قاع بما يشبه فقدان الوعي أو الخدر.. لم أفق منه إلا برقية شفافة تلمست فيها مهجتي

وأسرتني رائحة الحب التي تستبطنها. أنت امرأة تبكين متى تشائين، وأنا رجل تنهمر داخلي أعين باكية. أنت ربما تعرفين وجهة الحبيب، أما أنا فغدر بي وجه الحبيب والآن وفي هذه الساعة الميتة من تاريخي تفجعينني بخبرها، أرجوك أخبريني بمن تزوجت؟ هل هو أفضل مني في شيء؟ هل منحها الحب الذي قد كسوته بقطرات ندية من روحي وشلال لا ينضب من دماء قلبي، من هو؟

كانت أم عزوز تلك اللحظة الحرجة تائهة تمطرني بنظرات استنجاد بأن أملأ أقداح أسئلته الفارغة، كم وددت لو طوت السر ولم تبح به.

هزّها يعقوب بصوته المنداح ألماً يعتصره، بل هزّ كيانها فأصبح كأبواب متهالكة على جدران عتيقة تصفر بها ريح عاتية. استجمعت تكويناتها المنتشرة نصب عينها ثم ألقت بعبارة قفزت منها كهر طفق يخمش كل شيء يمر به قالت:

- سويلم العدان.

- من؟

- لم أسمع أرجوك من هو؟

- سويلم العدان.

- طوى رأسه بين ركبتيه وهو يقول:

- كم هذه الدنيا حقيرة ووسخة، لم تعثر إلا على خرائبها كي تقع فوقها.

قالت أم عزوز محاولة ترميم.. إيقاع روحه:

- هيا... لا تصلح لك وأنت كذلك.

- أنا أحبها، أعشقها.

- وهي كذلك.

- طيب.. أين المشكلة؟

- المشكلة أنك أنت.. وهو.. سويلم العدان.. والحب في هذه المعادلة غير وارد تماماً.

- دفع أكثر اشتراها يعني؟

- كان جاهزاً.

وما فائدتها من رجل لن يمنحها الروح والقلب و...؟

- مال وتركة والآن عندها ولد منه سيرثه.

تكومت فوق عينيه دموع عصرها فانهمرت مجندلة بقهر فوق خده.. قال:

- أريد أن أراها؟ أدفع كل شيء مقابل رؤيتها أرجوك هي ستأتي إليك سألوذ في مخبأ تحددينه عندك في أي مكان وحالما تأتي أخرج إليها.

أطرقت أم عزوز قليلاً تدير الفكرة في رأسها ثم رفعت نحوه رأسها تقول:

سأتدبر الأمر ولكن بشرط أن تتمالك أعصابك ويكون اللقاء عادياً بلا رتوش.

- قصدك..

- الذي تعرف... هي متزوجة من رجل لا يعلم عنها سوى أنها زوجته وأم ولده.

- اتفقنا.

- ماشي.

.. تركته أم عزوز يراوغ مشاعره المتناقضة، يتلمس وجهه في المرآة الملتصقة بسخرية فوق تسريحة أم عزوز، ثمة وجه مسربل بالحزن وشيء من الدهشة تغمره فوضى ملونة. لم تعد حالة الانتظار البائس بعد غياب تعيس تملأ جوف حيرتي المشغولة بهوان وانكسار. خرجنا من عند أم عزوز بحالة انتظار قاتلة. ظل مشبكاً بين يديه واجماً حتى تركته لوحدته وانتظاره.

يعقوب وهيا كرة أخرى

معاناة ثانية

في الأيام التالية، بات في انتظار يشاغل عقارب الساعة المليلة باسترجاع لهفته الأولى. اتصلت به بعد فراغ صبر وطول انتظار تدعوه منفرداً لما وعدت به. ذهب إليها فأدخلته غرفة جانبية مقابلة تماماً لغرفة الضيافة بما يسمح برؤية المشهد كاملاً. ظل خانساً يجيل بصره في فضاء المسافة الفاصلة، مرهفاً سمعه إلى صرصرة مزاليج الأبواب تحسباً لأي قادم. ظل متوهماً حركاتها الدائرية وروحه معلقة كلحم مقدد.. لقد علمته التجارب أن الأرواح تفسد في الأماكن المغلقة، لذلك يتركها دائماً مشرعة أمام عين الشمس أو نور القمر وارتعاشات النجوم، بما يبعث الأمل والفرحة الدائمتين؛ لذلك لا يترك للوقت أن يملي عليه فروضه أو أن يقدم نفسه له بسخاء، فلا يحصد من شجرته سوى عناقيد الوهم، فلن يمزق أنفاسه كمحارم ورقية ناعمة وشفيفة يذوبها الندى وتحرقها الأنفاس، لن يتعلق ببراثن الهباء المتطاير بين عينيه باستخفاف، فلن يتصرف أكثر من التيبس بما يشبه الانتظار.. لقد قمع كل محاولة في تركيب قسمات

وجهها ورفض استعادة ألوان لوحته التجريبية الأولى، فقد لا تأتي أو أنه يحلم ربما هو الآن فعلاً يغط في بحر أحلام لجية، وبذلك لن يصبح خاسراً ما دام يحلم. فجأة توغلت في طبلة أذنه جلبة اقتحمت روحه مثل صعقة كهرومغناطيسية، ثمة من فتح الباب دون مقدمات فتسابقت عيناه وروحه وأنفاسه تتنافر خارج جسده الذي بقي محنطاً. دخلت (هيا) بجسارة ومن ورائها أم عزوز تحمل بين يديها صينية وكأسي عصير ليمون. نهض من مكانه يلملم وجومه وحيرته. خرج إليهن مندفعاً كالصدمة، وقف قبالة هيا فارتعش بدنها وأحست بتصلب شرايينها مستحضرة ذاكرتها الحزينة... سكبت أولى كلماتها من لسان متيبس وهي تقول وفي صوتها نبرة اشتياق وفي عينيها حزن ودهشة:

- لا أصدق لعلني أحلم أو أنني فعلاً أحلم.. يعقوب!!! هل أنت يعقوب أم خياله؟

انسلت أم عزوز بهدوء، بينما جلست هيا على مرتبة إسفنجية وطيئة وكأنها في حالة انهيار كامل وهي تقول:

- لم تتغير كثيراً لولا مسحة الشحوب الداكنة على وجهك، هذه الملاحظة انتزعت فتيل التوجس وكسرت ثلوج الغياب كاشفة عن أطراف محرقة تعبث داخله.

قال:

- أنت تبدين أجمل.

- ربما في عينك.

- ألهذا الحد يبدل الزواج من حال الإنسان؟!

- ليس الزواج، بل قلْ الاستشفاء من تبعات الحمل والولادة، حياة أخرى بالنسبة للمرأة: لأنها تشارف على الهلاك، في لحظات تشرق إلى حياة مختلفة بخلاصة بشرية مستنسلة من جسدها ليتبخر معها كل شيء إلا القلب:

- هل أعتبر هذا اعترافاً مبدئياً ببقاء الحب؟

- كل الحب والاشتياق.

- ألا ترين أن لقاءنا هذا معجزة؟

- أو مؤامرة بطلها الظروف.

- وأي ظروف تحجب حبيباً عن حبيبه.

- المجتمع والعادات والتقاليد التي تحرم ارتباطي بك.

- ألهذا السبب كان اختفاؤك فجأة؟

ولأسباب أخرى أهمها مرض أمي الذي علقها بخيط رفيع قادها إلى مثواها الأخير بعد صراع مرير معه.

ثم تزوجت؟

- سويلم العدان.

- كان أكبر إغراء لا يقاوم تعرض له والدي، وكنت مزعزعة أواجه متاعب شتى أهمها مطاردة دحية لي؛ يساومني على شرفي. . وعندما تقدم سويلم هرعت إلى أبي بعد جدل داخلي أحمل إليه بشرى قبولي. كنت أقايض بجسدي على حياة مريحة ولخلاص من لعنة دحية وإرضاء لوالدي.

- وأنا؟

- لم تكن تدخل ضمناً في هذه المعادلة الصعبة.

اكتشفت مع الوقت أن حبنا حالة فرضية تدخل في دائرة المتصور غير المعقول.

- أما أنت فكان حبك حالة مرضية مستعصية مشيت به مكباً على أوجاع وزفرات دمرت روحي. كنت أحمل وجهاً لا أعرفه بدونك، بحثت عن ينابيع الماء الطاهرة علّني أعثر فيها على ما يشبه طهرك. . . لقد عذبني وجهك المطارد في خلوات السماء والأرض وعذبني أكثر عجزي عن الخلاص.

- أعرف أنك تعذبت. كانت أم عزوز تطوي أخبارك

كالأسرار تهربها لي كل صباح تزورني فيه أخبرتني أنك تكتب شعراً.

- بل كتبته، أنت في روحي وكانت عبارة شاعرة ممزوجة بوحي وعذاب وتيه وتعزية.

- اقرأ لي شيئاً منه.

- اسمعي:

وراح يقرأ لها، كانت عيناها ساهمتين متأوهتين من فرط تلذذها به تنبه وهو يقرأ ببحة صوت متهدج، إلى أنها قد شرعت تطيح بعناقيد فضية لامعة من محجريها. كانت مثل سرايا الأبطال المهزومين.. تمد لها جسوراً من وجنتيها وصدغيها إلى رقبتها ونحرها.. كانت تغسل أدرانها وتكفر عن سيئات الهجر والغياب، أهله شموخ أحزانها وراعه انكسار البطولة في مآقيها.. قرب وجهه كي يشف رائحة الحب المتضوعة بين أحضانها. أصبحت شهيته للحب المقدس أكبر من شهيته للحياة، فبدت رحلة التيه عبر سنوات اجترح منها المعاناة، هي كفارة تسبق تجلي ملائكة الحب على صورة أدمع فضية لامعة وأخرى أرجوانية.. زحفت أنفاسه تعانق حرارة أنفاسها حتى شفتيه ويتوج بها طهره. دسَّ رأسه بين أعطافها يروض روحها الجامحة فكانت مثل سنة طفيفة أعادت برمجة

خلاياه العصبية والروحية ليستيقظا على دفء لذيذ تسلل إلى جسديهما قالت:

- أريد هذه القصائد.

- هي لك وحدك.

- ستكون بمثابة الروح والدم حالما يتسرب هذا الدفء المنعش فأطالعها.

هيا وسويلم

لعبة ومعاناة أولى

أشعلت عينيها قناديل الليل وألهبتها في تجل وانبثاق في قراءة قصائد يعقوب. تجمهرت كل شحنات عذاباتها في حلقها وكانت غصة تتلوى كالأفعى تنثر منها سمومها بين جوانحها.. لقد أطبقت عليها كسيجارة قديمة وهي الآن تنثلها وكأنها تحضر أرواح الغائبين من بيت العمة، تأخذها نوبات بكاء متواصل إلى انفطار الكون بإشراقات خيوط الفجر الأولى، وقبل أن ينقلب (سويلم العدان) فوق فراشه متململاً وقد احتسى الليل في شخير متواصل كانت تدس قصائده تحت وسادتها ممدة جسدها إلى الجنب الآخر تحاول إطفاء عطش أسئلتها:

- لماذا أخرجه القدر أمامي في وقت كنت أتحايل على نسيانه؟

فكرت أن الجذوة لم تنطفىء، بل كانت خافتة وهو الآن يبعث لهبها.

- فماذا أفعل كيف أجابه انكسارات مقاومتي لرائحة الحب المتضوع داخلي.

يا لهذه الفاكهة المحرمة الشهية المغرية.

ينهض سويلم من فراشه ويهبط إلى الأرض يجرجر قدميه بتثاقل. . تلوي رقبتها نحوه وتسأله:

- هل أحضر لك شيئاً؟

- لا. . نامي سأصلي وأعود.

لم تزح نظرها عنه، بل غمرته بما يشبه الرؤية الأولى والانطباع البكر. . اختزلت كل تقاسيمه في خيالها ثم فرزتها بألوانها الطبيعية ووضعتها أمام صورة يعقوب في عملية مقايسات أخضعتها لمشاعرها الدفاقة بحب بائت أينع فجأة وازدهرت بسرعة نارية غير محسوبة، حاولت أن تخضع حالة الحب إلى معادلة منطقية تطفىء اشتعال حيرتها في كل مرة تعود بنتائج مخيبة تطفر من عينها دموع ساخنة تنبت على واجهتها إحساساً بالهزيمة والعجز.

لم تعد قادرة على سد منابع الدموع، ولا ردم هوة الأسئلة الباعثة على الحيرة والتشتت. . لقد وقعت رهينة حب من آياته قصائده ومن تأويلاته انجذابها العارم نحوه كفراشة تعابث بأجنحتها الشفافة ألسنة لهب.

فكرت كيف تبقى صامدة وصارمة إزاء غواية فاكهة الحب المحرمة، حتماً لن تتركها حتى تتسلق آخر أغصانها وتقطف آخر عناقيدها، راغمة منحازة إلى ضمير الحب. . هي لا تريد، ستراوغ وفي كل مرة تعقد العزم

فيها على مقاومة هجمة الحب تتزايد نبضات قلبها ويأكلها الذعر ويتيبس لسانها ويجف حلقها، فتأوي إلى قصائده تقرأها بربع حنجرة وبكل ذراتها، فتجري دماؤها في عروقها بانسيابية وتهدأ نبضاتها ويتعرق جسدها وتشرق ابتسامتها ثم يكسوها الصفاء.

بمرور الأيام انقلب مزاج هيا، أصبحت لا تطيق الحديث مع سويلم أو المكوث معه طويلاً حتى ساعة امتزاج جسديهما، فكانت تهبه جسدها ميتاً بعينين مغمضتين، وفي أيام قلائل نفدت ذخيرتها، فلم تعد قادرة على منح زوجها شيئاً من رغباته، وفي مرات كثيرة كان يأتي ولا يجدها، يبحث عنها بين زوجاته بلا طائل، فقرر أن يتقمص دور المخبر وصار يختبىء مترصداً لها بين نتوءات الحارة صباحاً وفي رأسه تضطرم مئات الصور البشعة. كانت نفسه تواقة إلى معرفة حقيقة زيارتها الصباحية الغامضة وما يتوارى خلف أبواب أم عزوز. مضى عازماً على كشف الحقيقة مهما كانت مُرَّة.

وفي ذات صباح خرجت (هيا) بعد أن شخّصت حالة الشارع وذرعته بعينيها فلم يكن سوى لهيب شمس حارقة يدحرجه هواء ساخن معابثاً الأوراق والعلب الفارغة الملقاة في جادة الطريق.

فما أن احتوتها عيناه تخطو بحذر متعهدة أطراف عباءتها محاذرة التعثر والسقوط حتى لحق بها (سويلم العدان) إلى أن دقت باب بيت أم عزوز الذي كان مواربأ فدفعته بيدها وولجت إلى الداخل وأغلقته خلفها بهدوء. اقترب سويلم من الباب إلى حد الالتصاق محاولاً استراق السمع من شقوق الباب دون جدوى، فما أن تناهى إلى أذنه الأخرى هزيم سيارة مقبلة حتى توارى بجسده الناحل خلف برميل زبالة على ضفة الشارع الأخرى. كانت سيارة فارهة تقف محاذية جدار بيت أم عزوز كأنها تتوسده ليبرز منها شاب لامع في كل شيء: وجهه ملابسه تتفشى منها رائحة عطرية صارخة تسربت إلى أنف سويلم بالرغم من رائحة الزبالة العفنة. أخرج شطر عينه اليمنى متفحصاً طريق هذا القادم وكانت المفاجأة أنه شبيه إلى حد كبير بيعقوب.

- لا بل هو ولكن ما الذي ساقه في مثل هذه الساعة إلى هذا الطريق وأين يريد؟

تفحصه جيداً وحسر أنفاسه المتلهفة لاكتشاف الحدث المفاجىء، تقدم الشاب ببطء شديد محاذراً ترصد أعين المارة وكان باب أم عزوز محرراً من أقفاله وترك مواربأ.

بدأت ضربات قلب الزوج المخدوع تهز صدره

وأنفاسه تصفر من أنفه وينفر من جسده عرق ساخن وعيناه شاخصتان تلهجان بالدعاء.

- يا رب لا تفضحنا، يا رب سترك، يا رب رحمتك.

محاولاً إمساك زمام روحه التي ستنفجر من كل مسامات جسده.. وفور ولوج يعقوب بيت أم عزوز أطبق براحة كفه على عينيه ولسانه يلهج بالدعاء، إلى أن اختفى يعقوب وابتلعته غيابة هذه الدار المسكونة باللعنة والفجور، كان سويلم مقعياً يبكي مصيبته؛ محاولاً شحذ أطرافه ورفعها عن الأرض لكنها لا تسعفه. أحس أن جسده يفرط منه وروحه تميع وعيناه تزغللان ورأسه يدور. تشابكت في أذنيه أصوات مجلجلة أخذته إلى مسافات بعيدة وأمدية سحيقة من وعيه الباطن.

- ما الذي جمعهم يا ترى في مثل هذه الساعة؟

- ماذا يفعلون في ضيافة أم عزوز؟

- يا إلهي هل هو تواطؤ على العهر والبغي؟

- يعقوب لا يمت لهذه المرأة بأية صلة!

- هذه المؤامرة الدنيئة على شرفي وعرضي.

- يا رب استر، الطبيب أخبرني أن الإنجاب عندي ضعيف؛ إذن هل أنجبت أبنائي أم هم من ظهور آخرين؟ من يكونون.. حتماً هم ليسوا أبنائي، ربما يعقوب أو

آخرون و(صفا) كذلك أنجبت من آخرين زوجتي الأولى هي الطاهرة رضيت وأسلمت أمرها إلى الله وها هو عقابه لي يهبط لعنة مبيتة!!!

كانت الأصوات الخبيثة تجول في رأس سويلم وهو ممدد في غيبوبة خلف برميل الزبالة لم ينتبه له أحد، أيقظته شمس القيلولة رغماً عنه فحبا على ركبتيه، لم تقدر قواه على حمله وهو بنصف وعي زجرت أشعة الشمس جسده المضني وعينيه الزائغتين ولهاثه المتواصل ليهوي وسط المارة الخارجين للتو لصلاة الظهر. التف حوله الناس وحملوه إلى بيت زوجته الأولى رضوى التي ما إن رأته حتى أصابها الهلع وعملت المستحيل كي تعيده إلى وعيه دون فائدة مرجوة، فاستعانت ببعض الجيران ببكاء مستغيث وقد سارعوا بحمله إلى إسعاف مستشفى الشميسي المركزي ليجيء تقرير الأطباء صاعقاً ومسفراً عن جلطة أسكنته قعر غيبوبة لا يعلم مداها إلا الله.

زوجاته تساقطن حوله يبكينه وهن يمسدن جسده التالف ويتناوبن في خدمته. أحست هيا بورطتها التي لا يعلمها سوى زوجها، فمكان سقوطه كان قريباً من منزل أم عزوز في الوقت الذي كانت بضيافتها بمعية يعقوب. . . أصبحت المسألة واضحة وجلية كعين

الشمس، المهم أن تبقى طي هذا الجسد المسجى بين الحياة والموت، مما سمح لها بالخروج دون رقيب أو حسيب، ولم تتوان أم عزوز لحظة في استخلاص هيا لساعات من الليل وأحياناً من النهار تعقد فيها مواعيد اللقاء بدافع إغراءات يعقوب المادية لها. إلى أن عادت هيا ذات مساء وكانت كعادتها لا تستبشر بتحريك سويلم أطراف أنامله أو بزوغ بصيص من عينيه المنطفئتين اللتين ما إن خامرت وجه هيا القادمة للتو من مشوار تنزع عباءتها عنها مقتربة منه للاطمئنان على ديمومة الحال حتى ارتجفت أطرافه وتراشق الزبد من شق فمه الأيسر وكأن أمراً مستكرهاً يريد البوح به والتعبير عما يستكن في قلبه دون جدوى.

أدركت (هيا) سر اختلاجاته، فراعتها بوادر شفائه عازمة على الابتعاد قليلاً عنه، فكانت لا تدخل عليه حتى يغمض جفنيه في نوم حتمي مستبد، تزحف إليه متسللة على أطراف أصابعها تغسلها برغوة نظراتها الشائنة، تجاذبها نوازع سوداوية بكتم أنفاسه وتقديمه إلى تراب الأرض، فدية للمحبوب وإخفاء للحقيقة الراكدة في عقر رأسه، فماذا لو تعافى من مرضه؟ حتماً سيشفي بها غليله وسينحرها كنحر شاة طيعة. ولن يكفيه منها ذلك، بله

وإحراقها بالنار. كانت الأفكار السوداء تطوقها كعقارب سامة، فلم تر عيناها النوم ولم يهنأ لها جفن، بل تفر من سريرها مستوحشة من كوابيس تلاحقها. كانت تهرب منها مرتمية في أحضان يعقوب، تلهب روحه المتعطشة للحب وتبثه مخاوفها.

صرحت له أكثر من مرة بوساوسها قالت له:

- لا محالة سيذبحني ولن يتركك تنعم بسلام، هو الآن لا يستطيع الكلام، لكن عينيه تتحدثان، أحس بلهب سياطها فوق ظهري أرجوك ماذا أفعل؟

وفي كل مرة يسكن فورة صدرها المرتجف فلا تصل إلى بيتها حتى تعاودها الشكوك والمخاوف، فتضطر للاتصال به خائفة ويحاول تهدئتها خشية فقدانها للمرة الثانية، فقد هددت أكثر من مرة بالهرب، فهي عاجزة عن مقاومة لعنة عين سويلم المطاردة لها. لفتها عتمة أيام وليال موحشة وبائسة وطواها غياب حرك شكوك (رضوى) زوجة سويلم الأولى فالتأمت على شكوكها ولم تحرك فؤادها كي لا تحكم عليها زوراً وبهتاناً، فقررت أن تحافظ على يقظتها الدائمة مرهفة سمعها إلى خطوات هيا وخرفشات أقدامها وصرير مزاليج باب شقتها المقابل للسلم فكلما تناهى إلى أذنيها شيء من ذلك طفقت إلى

عدسة الباب السحرية وفي ليلة باغتها صرير باب يفتح ثم يغلق ووقع خطوات تدب فوق الدرج فسارعت إلى العدسة السحرية، وكان كما توقعت. . . (هيا) تخرج بهدوء مترقبة وخائفة، فالتقطت (رضوى) عباءتها المعلقة على شماعة تحاذي الباب ولحقت هيا متخفية تمشي الهوينى، وكي لا تحدث جلبة تستفزها كانت تحشر جسدها بين انعطافات الحيطان المعتمة، وكانت مثل زوجها تسأل الله أن يخيب ظنها فيها ويبدد حومة الشكوك اللعينة حتى و(هيا) تلج بيت أم عزوز لم تبرحها الشكوك للحظة، بل وقفت متخشبة تحاول إقناع ذاتها أنها مخطئة، لكن الشكوك استعرت داخلها فنهبت بقدميها مسافات الطريق باتجاه ذات الباب تطرقه بعنف وكأنها تجلد جثة هامدة بيديها فادلهمت شكوكها قالت في نفسها.

- لماذا يتأخر فتح الباب؟ لا بد أن في الأمر شيئاً.

أخيراً أطلت أم عزوز برأسها من نصف درفة الباب الموارب وقبل أن تسأل دفعته (رضوى) وولجت إلى عقر المنزل، بفم مملوء بوابل اللعنات والوعيد والتهديد. حاولت أم عزوز تهدئتها ومقاومة نظراتها المختلسة القافزة فوق كل شيء، كان لسان صاحبة المنزل لا يزال يجتر كلمات ثقيلة ومتلكئة:

- مرحباً... تفضلي.

- اخبريني بسرعة ولا تكذبي، من عندك في الداخل؟

- هاه... ماذا تقصدين... لا أحد.. لا أحد.

- طيب.

هذا بالضبط ما لم تكن تنتظره، هذا الكذب يشي بمؤامرة خبيثة دفعت أم عزوز بكتفها وانهالت بصراخ أيقظ البنات النائمات والزوج المتداعي من الشراب، وقعت أم عزوز بين يدي (رضوى) تقبلهما وتتوسل إليها بمداراة فضيحة ستحل بها.

- سأشرح لك كل شيء أرجوك لا نريد فضيحة استري علي الله يستر عليك.

هذه الضجة هزت قلب الفتاتين فراغت كل واحدة إلى مصدر الفجيعة وكان المشهد الذي ما لبث أن تحول إلى فضيحة، الكل يحيط بأم عزوز ورضوى وهيا ويعقوب الذي لم ينتظر طويلاً كي تلبسه تهمة الاختلاء غير الشرعي، بل أرسل قدميه للريح.. خرج مغموراً بكل الأعين الموجوعة المتسائلة ثم انطلقت في أثره (هيا) إلا أن (رضوى) لم تمنحها الفرصة بل تشبثت بذيول عباءتها

ممسكة بها وهي تعصر صوتها الخائف المرتجف بتوسل مبتور.

- أرجوك استري علي... صدقيني... لم يمس أحد بشرفي.. فأنا عفيفة.

- عفيفة سنرى وأنت (موجهة كلامها إلى أم عزوز) حسابك بعدين.

سحبت هيا من يدها، تدفعها أمامها بعنف، وانطلقت بها تجرها كذبيحة مستعصية.

هيا

معاناة أخيرة

كانت الأيام التالية بمثابة ليل أرخى عباءته كالحة السواد، مسدلاً سكونه على (هيا) و(رضوى) و(أم عزوز) وبناتها ويعقوب الفار بتوجس إلى شقته الصغيرة التي أستأجرها مؤخراً في حي الناصرية. . أصبح الصمت مثل حبال مشنقة مدلاة بانتظار أول المشنوقين لم يعد بكاء هيا كافياً ولا نظرات رضوى مجزية ومريحة لها.

داخل سرداب مظلم من روحها كانت هيا ترى نفسها وتلتف حول جسدها المشبع إهانة. أصبح هذا السجن داخل غرفة موصدة من بيت رضوى مثل كوة لزجة التصقت بها كحرز حقير معلق بين فناءين فناء الذات وفناء الروح. ركنت هيا إلى قصائد يعقوب. . آخر ما سمعته منه وقبل أن تقتحم عليهما رضوى وهدتهما كانت تطوقها بين أناملها، تحاصرها مواكب الذكريات. . . هذا الحصار الشاعري البديع يبدد وحشة الحصار المكاني الصلد.

تنام وتصحو في إضراب تام عن الأكل وممانعة عن الكلام. كانت تلملم أطرافها بين ذراعيها وتمد يديها بين

ركبتيها مثل حاملة ورق تطل من خلالها قصائد يعقوب تنفذ من خلالها إلى حياة جديدة باستسلام واسترخاء متبتلين كقديسة، ولما تدخل عليها رضوى غرفتها الموصدة يروعها منظرها الآخذ بالتلاشي بعينيها الغائرتين اللتين تظللهما غيمة سوداء. نهرتها مرات ومرات، وذكرتها أنها تستعجل موتها، كم تمنت هيا أن تطلق رضوى من عينيها الجاحظتين وابل رصاص يخترق جسدها، وتريحها من عناء وجودها، وثقل الحياة عليها حتماً ستنسل روحها مختمرة بقصائد يعقوب وتطير بأجنحة من شعر محلقة فوق أرواح المبدعين الوالهين، ستصير ملهمة أو جنية إبداع، المهم أنها تخلصت من جسدها الذي يحمل العار والدنس، حتى طفلها الذي حجب عنها هو شيء من عارها المقدس.

وفي ليلة سحائبية شاتية منذرة ببرق وأمطار ورعد كان الجميع يتأهبون لنوم هادىء ومريح تغمر أجسادهم أغطية ثقيلة.. كانت رضوى للتو قد أنهت مهمتها بإعطاء سويلم آخر قرص دوائي ليلي وبينما تهم بالانسحاب بهدوء إلى غرفتها المتوسطة بين غرفة سويلم وغرفة هيا، إذ لمع في عينيها احمرار انعكس من عقب باب غرفة هيا استشرى ببلاط (البورسلان) اللامع خمنت للوهلة الأولى

أنها لمعة برق ثم استدركت أن اللمعة الحمراء تزداد وميضاً وتدفقاً، فآلت نحو الباب تصيخ سمعها إلى الداخل كان ثمة هسيس نار تشتعل ورائحة احتراق ففتحت الباب فوراً فهالها ما ترى. . . نار مضطرمة تطوق سرير هيا الجالسة بسكينة ومقلتاها متصلبتان نحو الأوراق لم يحركها اللهب الذي يعانق سقف الغرفة، فوراً انبجس من حلق رضوى صراخ وعويل مرتعد طلباً للنجدة وشرعت بكل ما أوتيت من قوة تطفىء النار وتخرس ألسنتها المتصاعدة أو على الأقل تحد من أوارها بما يسمح بإنقاذ هيا. بذل بعض السكان جهدهم في إخماد الحريق إلى أن تمت السيطرة الكاملة عليه، وقبل أن يصل رجال الإطفاء هرعت (رضوى) وصفا بمعاونة بعض الرجال لحمل جسد (هيا) الجالسة مثل ملكة أمام فوهة معركة لا تطالها. . حملوها إلى غرفة رضوى وأجلسوها فوق السرير على هيئتها لم يمسها أذى، حمدت رضوى الله كثيراً وجلبت صفا إناء ماء ثم شرعن يقشرن عن جسدها أسمالها البالية الرطبة. نظرت صفا إلى جسدها المسجى كان بارداً متيبساً ثم سألت رضوى:

- لماذا جسدها بارد؟

- لا أدري.

حاولت تمديدها على الفراش؛ إلا أن فرائصها كانت متجمدة، ابتعدت عنها صفا مذعورة، تنزلق من عينيها كتلة دموع وهي تقول:

- ميتة... أشك أنها بلا روح.

وضعت رضوى جانب رأسها من جهة أذنها اليمنى على صدر هيا مختبرة أنفاسها الهامدة ووجيب قلبها، استنشقت أنفاسها، فلم تكن ترد النفس نهضت إلى ملاءة تدثرها مرددة:

- الله يرحمها لم تكن ميتَة!!

سحبت الورق من يدها بصعوبة... أعطته لصفا الباكية ثم دثرتها في وداع أخير. أجالت صفا عينيها باكية بين أحبار الورق المرشوق بالماء، ثمة دائرة حمراء عريضة تحف مقاطع الكلمات، علمتها بعناية، قرأتها صفا بسكينة وحزن ودموع.

ختمت أم عزوز حكايتها (التي أرويها لكم الآن) بصوت متهدج يعتصر ألماً وحزناً. تقول وهي تنشف وابل الدموع المنهمرة على وجنتيها:

- كانت ضحيتي. ضحية جشعي وطمعي لو لم تكن الخمسة آلاف ريال التي أعطاني إياها يعقوب في أوج

حاجتي لما بادرت وأخبرته عمّا صارت إليه هيا، ولما رتبت لهما موعداً وأقنعتها به. لقد كانت راضية مطمئنة إلى قسمتها وأنا فتحت لها فوهة جهنم التي احترقت بها.

حاولت التماس أعذار ترقأ حزنها قلت:

- أنت قلت.. حاجتي، هي فعلاً الحاجة الملعونة، ثم إنك لا تعلمين الغيب لم تتوقعي حدوث هذه المأساة.

- المأساة... فعلاً أنا شيطانة. أرجوك منذ اللحظة سأحاول جاهدة التكفير عن هذه الغلطة، لذلك سأعتزل الناس سأتفرغ لبناتي.

- كيف ستتدبرين أمرك مادياً؟

- فكرت في ذلك ملياً، أخيراً اهتديت إلى حل، سأنصب لي بسطة في سوق الذهب وسأبيع كل حاجيات النساء بذلك سأحصل على القوت اللازم لنظل بمنأى عن مد يد الحاجة للناس.

- إذن لن أراك.

- أكيد... وهذا أول ما سأقوم به... اعتزال كامل... أرجو أن تساعدني على ذلك.

تركتها تيك الليلة تطفر بالألم والحسرة. إحساسها بجريمة ارتكبتها في حق أبرياء كان عظيماً. خرجت طافقاً

بسيارتي إلى المكان المفضل ليعقوب، حيث المقاهي الشعبية في جهة الرياض الشرقية. أجريت اتصالاً سريعاً من محمولي على يعقوب، كان جواله مغلقاً تركته لساعات تالية كررت المحاولة طوال الليل بيد أن جواله ظل أخرس. عدت أدراجي أبحث عنه. كانت سيارته جاثمة لصق جدار منزله قرعت الباب والجرس لمرات وفي أوقات مختلفة فلا مجيب. قررت ألا أتركه يتوارى في فيضة قدرية أخرى. سأكون إلى جانبه هذه المرة، سأنتزعه من براثن التيه الذي ربما يلجه فاقد الوعي خصوصاً بعد موت هيا. ربما بسبب إحساسه بالذنب أو الفقد، ولكن أي تيه بعدما ألقى كل أسلحته وجمد كل مناوراته. بت أجوب الأحياء والطرقات. واليوم صباحاً كنت لمحته في كل الوجوه القانطة. هرولت خلفها استبنت منها وجه صديقي يعقوب. كانت كلها تحمل ألوية متكسرة ورؤوساً منكسة بأعين منطفئة. جلودهم كانت باردة ومتيبسة بلا عرق.

N O V E L

غشيت أم صنات المتسامرين عندها بأمنة تحيطها أسرار دفينة.. يتقاطرون إليها ليلاً وقتما تخبو أنفاس الناس المبعثرة نهاراً؛ لتطفو السكينة بين التواءات الحي يخلعون بين يديها أجساد التعب، يقتلعونها من أرواحهم الدنفة ويعلقونها على مشجب يتدلى من عتم حيرتهم المقهورة.. تستفزهم ضحكاتها المشاغبة، المشمرة عن حبة خال تتراقص بغنج فوق خدها الأيمن. تخفق حمائم المد الليلي.. القادمات بخفر وكتيبة تحرٍ، كي لا تسقط إحداهن بشرك هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المندسين بين أنوف الناس، المتعلقين بأهدابهم؛ ليبدو كل انفراد ذكوري بأنثى هو محض تداعيات (زنا).

ISBN 9953-479-70-4

9 789953 479705